المسيحية بين الدين والفن

د. سلام حميد الحلي

الدين والمعتقدات:

لما كان فن الإيقونة ناتجاً مهماً من نواتج علائقية الارتباط القائم بين المسيحية كدين وبين الفن المسيحي، أصبح من المسلم به، أن يترافق مغزى الدراسة الحالية مع معطيات البحث المعرفي والتحليلي للأطر الفكرية الجامعة لأبجديات الفكر المسيحي المرتبط بصلات حميمة مع الدين والفن على حد سواء، فلأيقونة هي مصدر من مصادر التعبير التي يشيد من خلالها فعل السرد القائم على أساس التعريف بالأفكار والأحداث والقصص والروايات الخاصة بالسيد المسيح والسيدة العذراء، وما يتصل بالدين المسيحي من تعاليم سماوية وتوجيهات وأرشادات، تعتري بنية المجتمع الإنساني، وتوظف النزعة الإنسانية كعامل مهم من عوامل الأرتقاء بالإنسان إلى مستوى أفضل، جنباً إلى جنب مع الأديان السماوية.

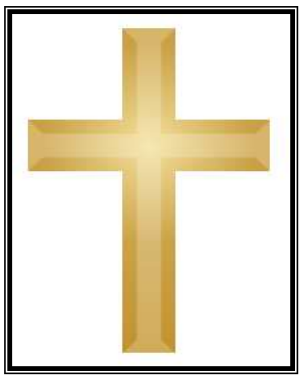

شكل (1) الصليب :أبرز رموز الديانة المسيحية

والمسيحية*: هي إحدى الديانات الإبراهيمية والديانات التوحيدية؛ الجذر اللغوي لكلمة مسيحية تأتي من كلمة مسيح' والتي تعني حرفيًا المختار أو المعين، وقد جاءت التسمية نسبة إلى يسوع الذي هو بحسب العقيدة المسيحية المسيح، ابن الله، الله المتجسد، المخلص وغيرها من التسميات الأخرى [1]

نشأت المسيحية حوالي العام 27 من جذور مشتركة مع الديانة اليهودية ولا تزال آثار هذه الأصول المشتركة بادية إلى اليوم من خلال تقديس المسيحيين للتوارة والتي يطلقون عليها إلى جانب عدد من الأسفار الأخرى اسم العهد القديم الذي يشكل القسم الأول من الكتاب المقدس لدى المسيحيين في حين يعتبر العهد الجديد القسم الثاني منه؛ لقد كان السيد المسيح مع دعوته بالإنجيل يمارس الشريعة الموسوية والرسل من أتباعه كذلك ، فيتردّدون على الهيكل ويحفظون الأعياد اليهودية ويحافظون على الختان والصوم وسائر أحكام التوراة ، لأنها أمست جزءاً من قوميتهم ، وبذلك كان أتباع السيد المسيح (ع) من اليهود ، يقيمون التوراة والإنجيل معاً، وهم بذلك ينادون بالإيمان بموسى وعيسى معاً ويرفعون شعار العماد والختان معاً ، لكن المسيحية ما لثبت أن انتشرت بين الأميين، وتكاثر عدد المسيحيين من الأمم حتى فاق عدد أهل الكتاب اليهود [2]

وكان للسيد المسيح (عليه السلام) أثنا عشر حوارياً بعثهم رسلاً إلى الأقطار للدعاية إلى دينه ، وأشهرهم أربعة الذين تصدروا لكتابة سيرة السيد المسيح (ع) من حين ولادته إلى حين رفعه ، وهم

---

* المسيحية : أطلق للدلالة على معتنقي عقيدة إلوهية المسيح ، التي أقرت في مجمع (نيقية) سنه 325 م ، وظهر لأول مرة في إنطاكية في القرن الثالث الميلادي في المجلس الذي انعقد بمدينة (نيس) ، والمراد منها : إنهم أتباع المسيح عليه السلام ، وتطلق النصرانية على الدين المنزل من الله تعالى على عيسى (ع) وكتابهم الإنجيل ، وأتباعها يقال لهم ، النصارى نسبة إلى بلدة الناصرة في فلسطين ، أو أشارة إلى صفة ، وهي نصرهم لعيسى (ع) ، وتناصرهم فيما بينهم، وكانت هذه الصفة تخص المؤمنين منهم في أول الأمر ، ولم يلبث أن أطلقت عليهم كلهم على وجب التغليب،= =والنصارى يجمعون على أن مريم حملت بالمسيح (ع) وولدته في (بيت لحم) في فلسطين وانه تكلم بالمهد، وأنكر عليها اليهود ذلك ، ففرت به إلى مصر ثم عادت به إلى الشام وعمره آنذاك اثنتا عشر سنة ، فنزلت به في القرية المسماة (ناصره) ، وبقى فيها إلى أن ألقى الرومان القبض عليه وسعوا به إلى عامل قيصر ملك الروم على الشام 000 للمزيد ينظر ويد ، جيري : المذاهب الكبرى في التاريخ ، ترجمة : ذوقان طه ، دار القلم للطباعة والنشر ، بيروت ، ط2 : 1979 ص139

(1) الموسوعة البريطانية، يسوع المسيح (بالإنجليزية)، 27 كانون الأول 2010.. http www.britannica.com

(2) مارتلي، برنارد: العذراء مريم ، ط1، شركة تايمس للطباعة والنشر، ت:البيرابونا ، بغداد : 1985، ص20- 21

(بطرس ، ومتى ، ولوقا ، ويوحنا) وكتب كل منهم نسخة على ترتيب خاص بلغة من اللغات، وكان الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط الثقل الرئيسي للمسيحية في القرون الأولى وظلت القدس، أنطاكية، الرها، والإسكندرية عواصم الثقافة المسيحية قبل انتقال النفوذ والتأثير إلى روما والقسطنطينية خلال القرون الوسطى. وقد عانت المسيحية في البدايات من اضطهاد الإمبراطورية الرومانية لكنها ومنذ القرن الرابع غدت دين الإمبراطورية واكتسبت ثقافة يونانية ورومانية أثرت عميق التأثير فيها؛ وكأي ديانة أخرى ظهرت في المسيحية عدة من الطوائف والكنائس تصنف في ستة عائلات كبيرة: تزامنت الانشقاقات الأولى مع القرن الرابع حين انفصلت الكنائس الأرثوذكسية المشرقية والأرثوذكسية القديمة، تلاها عام 1054 الانشقاق الكبير بين الكاثوليكية والأرثوذكسية الشرقية ثم البروتستانتية خلال القرن السادس عشر فيما عرف باسم عصر الإصلاح. [3]

اللاهوت المسيحي

لقد جائت الفلسفة المسيحية، حتى قبل تسنينها في عقيدة مغلقة، مصادمة لروح الفلسفة اليونانية في نقطتين ميتافيزيقيتين أساسيتين:

الخلق من عدم والتجسد الألهي، (فالله) في المسيحية هو وحده الخالد والكامل، والكون الذي لم يكن موجوداً هو من خلقة ولسوف يكون مآله الى مثل العدم الذي جاء منه بقرار الهي أيضاً .

ولكن الكون في التصور السائد– وبخاصة الأرسطي – من الفلسفة اليونانية غير مخلوق، وقديم قدم (الله) نفسه، ومشارك في الماهية الألهية بثباته وبثبات القوانين التي تنظمه وتحكم حركته الأبدية، فالكون بمعنى من المعاني هو (الله) نفسه، وهو بلا تاريخ، وغير خاضع للتغيير، لأن حركته دورية وتغيراته لا تعدو أن تكون تكراراً أبدياً، والحال أن المسيحية تقوم على فكرة مبادأة تاريخية جذرية تتمثل بتجسد المسيح الذي يحدث تغيراً أنقطاعياً في مسار الكون والزمن معاً، وبما ان الشق الذي ساد من المسيحية هو ذاك الذي يقول بألوهية المسيح، فان فعل التجسد يعادل خرقاً للثبات الألهي والكوني معاً، وهذا بالتحديد ما كان يشق كل المشقة على ورثة الفلسفة اليونانية أن يقبلوه . [4]

---

(3) المطران جاورجيوس: المسيحية والحضارة ، دير القديس جاورجيوس البطريركي الحميراء، موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية، 10 كانون الثاني 2010. http://www.coptology.com/blog/?p=37

4 . جورج طرابيشي: مصائر الفلسفة بين المسيحية والأسلام، ط1، دار الساقي، بيروت، 1988، ص25–26

ان أهم موضوعات الفلسفة المسيحية، هو (الله) ، فالخاصية الأساسية (لله) في الفكر المسيحيهي الوحدانية، وهي خاصية مستمدة من تعريف (الله) في سفر الخروج بأن الوجود، الوجود الحقيقي الأصيل الذي يصبح كل وجود آخر الى جانبه مجرد ظلال أو مجرد وجود زائف مادامت خاصية هذا الوجود الحقيقي أنه واحد فان ذلك يعني أنه لا يعتمد على شيئ آخر وانما كل شيئ يعتمد اليه ويفتقر اليه فهو اذن وجود ضروري وبقية الموجودات وجود عرضي، وهو كامل لا متناه وبقية الموجودات ناقصة ومتناهية وان هذا الوجود الكامل اللامتناهي هو خالق الاشياء وتلك الفكرة تبرز أصالة الفلسفة المسيحية والاهوت المسيحي . [5]

ان فكرة الموجودات في اللاهوت المسيحي هي ان (الله) هو الوجود الحقيقي وهو الوجود الكلي الشامل وكل شيء آخر لا يستحق اسم الوجود ويهبط الى عالم الظاهر اللاحقيقي، وهذه الفكرة موجودة اصلاً في نظرية أفلاطون عن المثل التي هي الوجود الحقيقي بينما الأشياء المجردة ظلال باهتة لها (فالله) هو الوجود الحقيقي لا يتغير ومن هنا كانت مشاكل التغيير والحركة الحيوية في الفكر المسيحي وهو سر اهتمام القديس توما الأكويني بفكر الحركة الأرسطية وكل حركة تستلزم وجوداً، أي شيء يتحرك وهذا الشيء أما ان يكتسب وجوداً أو يفقد وجوداً وتعريف الحركة عند أرسطو هي فعل ما هو بالقوة أي التدرج من القوة الى الفعل والحركة فعل ناقص يتجه الى الكمال فحركة الاشياء تعني نقصها اي حدوثها او عرضيتها ومعنى ذلك ان كل شيء باستثناء (الله) يمكن ان لا يوجد .

ففكرة الصانع عند أفلاطون والحركة عند أرسطو لا يتصفان بصفة الخلق، فهذه الفكرة (الخلق) ضلت بعيدة عن الفكر اليوناني لأنه لم يدرك ان الله هو الوجود على الرغم من ان فكرة الحدوث والعرضية موجودة في الفكر اليوناني فالكثير يصدر عن الواحد عند أفلاطون، والموجودات عرضية بالنسبة للمحرك الأول عند أرسطو . [6]

اما فكرة الخلق في المسيحية تتمثل في وجود الله وهناك براهين على ذلك، فهناك البرهان المستمد من الحركة، كل شيء يتحرك وكل ما يتحرك يتحرك بواسطة شيء وهكذا تسير السلسلة الى محرك أول لا يتحرك، أما البراهين التوماوية الخمسة، فأول برهان هو الحركة والثاني بهان العلة والثالث برهان

---

5. جلسون، ايتيين: الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، تر: امام عبد الفتاح امام، ط3، التنوير للنشر والطباعة، بيروت، 2009، ص12

6 . جلسون، ايتين: الفلسفة المسيحية في العصور الوسطن المصدر السابق، ص107 .

الممكن الواجب والرابع برهان التدرج في الكمال والخامس برهان النظام وتشير هذه البراهين الى نصوص سفر الخروج ، ان الله في العالم المسيحي يصل الى الوجود، في حين انه لا يتعدى علم الفكر والكيف عند اليونان وهو علة كل شيء ما عدا الوجود، في حين في العالم المسيحي هو علة الوجود الوجود ذاته، والعالم في الفكر اليوناني تشكل وتحرك منذ الزل اما في العالم المسيحي فهو كون هادف مخلوق، ان الغاية الالهية في الفكر المسيحي هي التي ترسم غاية الاشياء . [7]

في فلسفة العصور الوسطى المسيحية المؤثرة فكرياً في العقيدة واللاهوت المسيحي لبتي نجد في قسم منها امتداداً للفكر الفلسفي اليوناني المتمثل بنظريات (أفلاطون وأرسطو) فخلال تلك الحقبة يبرز الفكر الفلسفي الروحي للقديس اوغسطين الذي حاول بعقله الطبيعي الوصول الى الحقيقية العليا فبدأ بالمانوية فمذهب الشك ثم الأفلاطونية الجديدة ثم انتهى أخيراً الى المسيحية، لأنه (ان لم تؤمنوا فلن تفهموا) فالأيمان شرط للفهم أو التعقل فالترتيب التقليدي لنواع المعرفة عند المفكرين المسيحيين هو الأيمان ثم الفهم أو التعقل، ومن يبدأ بمقدمات أيمانية ينتهي باستمرار الى نتائج ايمانية . [8]

ان من أهم المسائل في الفكر والعقيدة المسيحية هي وجود (الله) فيرى اوغسطين ان الذات تكتشف ان هناك حقائق وهذه الحقائق علتها لابد ان تكون من جنسها فهناك اذن وجود أزلي أبدي وهذا الوجود هو (الله) والوجود والماهية شيء واحد ولهذا فأن الماهية التي نتصورها (الله) في نفوسنا تقتضي الوجود، ففكرة (الله) الموجود في نفوسنا تقتضي وجوده ايضاص فالله اذن موجود، هذا هو البرهان الأول لدى اوغسطين .

أما البرهان الثاني على وجود (الله) عند اوغسطين، فهو ان التغير في الوجود يتم بأن يتخذ الشيء صورة مضادة له وعلى ذلك لا يمكن ان يكون الشيء هو الذي يعطيها لنفسه، لأن هذا مستحيل والا لما كان في حاجة لأن يعطي نفسه ما هو موجود فيها من قبل، فأعطائه الصورة لا يمكن ان يتم الا عن طريق موجد للصورة، ومعنى هذا ان هناك علة أو خالقاص هو الذي يهب الصورة وهذه العلة باعتبارها واهبة هي (الله). [9]

---

7 . المصدر نفسه ص107-108 .

8 .المصدر نفسه ص67 .

9 . عبد الرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى , ط3، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص26 .

البرهان الثالث على وجود الله عند اوغسطين، يقول ان في الوجود نظاماً وجمالاً . وهذا الجمال والنظام لا يصدر الا عن موجد فنان هو (الله) .

وان (الله) لا يمكن ان يدرك أو يوصف، لأنه فوق الوصف والكلام، وكل تشبيه بينه وبين الانسان– باطل، فقد نستطيع ان نظيف الى (الله) صفات معينة يتفق فيها مع الانسان . الا ان هذه الصفات يجب أن تنزه عن التشابه مع الانسان، وهذه الصفات ليست شيئاً يضاف الى الذات، ويعتبر من الكفر ان تقول ان (الله) غير الحقائق الأزلية، لأن هذه الحقائق الأزلية الأبدية هي صفات (الله) وليست زائدة عليه، والوصف الذي نستطيع ان نصف (الله) به هو الوجود، والوجود بالمعنى الافلاطوني هو الشيء الحقيقي الذي يمكن أن يتصف به (الله)، فالصفة الاولى اذن هي الوجود الخالص بأكمل معاني الكلمة – ولما كان (الله) ازلياً أبدياً، ولما كان وجوداً خالصاً فهو علم، وعلم (الله) ليس حادثاً ولا متعلقاً بحادثة دون أخرى، وليس يتم بالانتقال من فكرة الى فكرة وليس علماً لما حدث فيه، بل علم لما حدث ولما هو حادث ولما سيحدث، كلها دفعة واحدة، وفي حضرة الأله مرة واحدة، والاشياء توجد لأن الله يعلمها، ولا يعلمها (الله) لأنها توجد فالأشياء والافكار لا وجود لها الا من حيث هي معلومة عند (الله) . (10)

وفي مسألة الاخلاق نجد ان القديس اوغسطين قد تجاوز بالفعل الاخلاق اليونانية منذ اللحظة التي جعل فيها الاخلاق كلها تعتمد لا على شيء يمكن أن يفنى – بل على حركة داخلية للارادة راسخة في (الله) الذي هو الغاية الوحيدة للانسان، وهو حين فعل ذلك فقد حدد الى الابد طبيعة الغائية الاخلاقية كما فهمها المفكرون المسيحيون، ان القول بأن خيرية الارادة تعتمد على نية الغاية، وتعني عندهم انها ينبغي ان تامر نفسها من الداخل، ان لم يكن بصفة مستمرة، فعلى الأقل من حيث النية والواقع، تامر نفسها من الداخل بالتوجه الى الحيز الأقصى والمتميز باستمرار عنا وهو : (الله) ، اي نحو الأرادة الألهية، والتي لا بد أن يكون لدى الأنسان نية مطابقة ارادته معها، ونحن كلما رغبنا من الناحية المادية في خير جزئي فاننا ينبغي علينا من الناحية الصورية أن نرغب أو نريد أن يكون الأختيار مطابقاً مع الأرادة الألهية، وتعتمد القيمة الأخلاقية كلها على مثل هذه المطابقة .

وهذا المبدأ يؤكد في المرتبة الأولى الوحدة الكاملة للحياة البشرية، فهناك ميل للأرادة نحو الغاية التي يكشف عنها العقل، هذه القوة الجاذبية أو الوزن والثقل كما يطلق عليها القديس اوغسطين والقديس

---

10 . المصدر نفسه ، ص27

توما – التي توحد الأنسان (بالله) عن طريق جاذبية الحب، واذا ما كانت هذه النية مركزة بشكل دائم على غايتها فلن يكون ثمة مكان عندئذ في قلب الانسان – كما يقول القديس اوغسطين – لن يسعى الى أن يصنع حياة سعيدة، لكنه سوف يسعى الى (الله) لكي يهبه الحياة السعيدة فهو وحده القادر ان يمنحه اياها [11].

أما مشكلة العالم عند اوغسطين فهي متصلة اتصالاً وثيقاً، بمسألة (الله)، من حيث ان ذلك العالم مخلوق (الله)، في نظرية أوغسطين عن العالم نلحظ تأثره بأفلاطون وبالأفلاطونية المحدثة خصوصاً فيما يتصل بتطور العالم .

فالقديس أوغسطين ينظر الى العالم أولاً نظرة أفلاطون في (طيماوس) وكما هي نظرة الفيثاغوريين من قبل، وذلك لأن العالم في نظره منتظم متناسب الأجزاء، ويسوده الأنسجام لأنه يقوم على قواعد من القياس والعدد والصورة، فهو يقوم على العدد لأنا نعد الأشياء، وعلى القياس لأنا نقيس الأشياء، ويقوم على الحجم او الثقل لأنا نزن الأشياء، والقوانين الرياضية هي التي تسود العالم سواء كلن كواكب او أراضي، والخلاصة أن بالعالم أنسجاماً تاماً . [12]

أما طبية الأشياء ذاتها فقد رجع فيها القديس أوغسطين الى التفرقة بين الصورة والهيولي. من ان الهيولي لا تكاد تكون شيئاً، وليست الهيولي غير صورة عارية من الكم، وعلى هذا الأساس ولفهم ماهية المادة وجب تجريدها من الصورة، ويتبرا عدماً، كما قال أفلاطون، وأنما يقول ان لها وجوداً على أساس أنها قوة قادرة على أخذ الصورة، وعلى هذا فالهيولي مبدأ للوجود، وليس وجوداً حقيقياً ولهذا نراه ينعتها بأنها وشك الوجود، أي انها ليست الوجود الحقيقي.

وحينما ينتقل اوغسطين من بيان طبيعة الموجودات الى بيان نشأتها، يرى أن هناك مذهبين :

مذهب يقول ان الوجود أصله عنصر مادي .

مذهب يقول ان أصل الوجود جوهر عقلي، وكان طبيعياً من حيث ان القديس اوغسطين أفلاطوني القول، فيعتبر ان علة الاشياء مبدأ عقلي، فهو يرجع الموجودات من حيث وجودها الى علة عاقلة مدبرة، الا انه لا يستطيع ان كان يريد ان يظل مسيحيا– أن يأخذ بما قال به أفلاطون من قبل أن الهيولي قد وجدت مع الصانع، ولم تكن من خلقه، لقد كان عليه ان ينكر هذا ويقول بأن الهيولي من خلق الصانع أو

---

11 . جلسون، ايتين : مصدر سابق ، ص456–457.

12 . عبد الرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى، مصدر سابق، ص38 .

(الله)، (فالله) هو الموجد الخالق من العدم للهيولي، ووجود (الله) وجود مختلف كل الأختلاف عن الهيولي والكائنات الفانية، وجود (الله) هو وجود بذاته بينما الأشياء وجودها بغيرها، وعلى هذا فهي مختلفة في وجودها عن وجود (الله) تماماً . وفي هذا يقول أوغسطين بمبدأ الخلق كفيلسوف مسيحي، اذ يرى في بيان خلق العالم – من حيث ضرورة الوجود – فيقول بأن هذا الوجود ليس ضرورياً، ومن هنا يصف كيفية الخلق بانه أولاً راجع الى خيرية (الله)، ثم الى ارادت، ثم الى عقله، فالعالم لم يوجد تبعاً لضرورة قاهرة، وانما وجد لأن (الله) خير، والخير لا يفعل الا الخير والوجود خير من العدم، ولهذا اوجد العالم فالعالم من حيث وجوده فيض من خيره . [13]

اذاً العالم فيض من خير (الله)، ودليل على ارادة (الله)، ومرتب حسب عقل (الله)، الا اننا هنا لم نصل الى خلق الكون فحسب، ان فعل الخلق عند أوغسطين،فعل واحد أي ان الله خلق الكون مرة واحدة، ولا يخلقه باستمرار، فكيف نوفق بين هذا الفعل وبين نشأة الأشياء ووجودها، فأوغسطين يرى ان فعل الخلق الذي هو واحد كان يتمثل في فعل خلق البذور التي تنشاجميع الاشياء عنها، وعلى هذا الاساس استطاع أغسطين أن يقول بفكرة التطور، وأن يقول بفكرة المسيحية القائلة أن فعل الخلق واحد وهو أولاً خلق المادة غير المصورة، وفي هذا الفعل نفسه وجدت الصورة، واتحدت بالهيولي، وكان هذا الاتحاد هو فعل الخلق الأول، ولما كانت الأشياء قد خلقت، كان الزمان لا وجود له الا باعتبار الأشياء المخلوقة ويقول أوغسطين ان الزمان صورة الابدية والزمان لاوجود له بوصفه أزلياً أبدياً، وانما وجد الزمان كما وجدت الاشياء، وهذا طبيعي لأن المسيحية تقول بخلق الزمان، فكان على أوغسطين أن يقول أيضاً بأن الزمان مخلوق، ولكن يلاحظ ان حفظ الخلق لا يتم الا بفعل مستمر من (الله)، فالأشياء التي خلقت لتحفظ لا بد لها من شيء يحفظها، وهذا هو فعل (الله) ولولاه لفنيت الأشياء، وهذا طبيعي لأن وجود الأشياء مستمد من وجود (الله)، ولو توقف الفيض الألهي لصارت عدما . [14] فأوغسطين يرى وجود (الله) أمراً بديهياً، وأن (الله) وحده ثابت كامل، وهو الخير الأعظم. [15]

---

13. عبد الرحمن بدوي : المصدر نفسه، ص30.

14. المصدر نفسه، ص30–31

15 . يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ، مصدر سابق، ص28.

أما القديس (توما الأكويني) يرى ان (الله) هو الوجود الأول الكامل وهو سبب جميع الموجودات الأخرى، أما المادة فهي ليست الا الوجود بالقوة، فكل شيء بما في ذلك المادة نفسها يقع في متناول الخالق . وأن جميع البراهين المسيحية الدالة على وجود (الله) هي بواسطة العلة الفاعلة .

ويعتقد توما الاكويني ان وجود (الله) ليس واضحاً بذاته ويعارض أولئك الذين يذهبون الى ان وجود (الله) فطري في الأنسان اذ يعتقد انها فكرة باطلة، فليس وجود (الله) فطرياً وانما المباديء العقلية هي التي يستدل منها على وجوده، وهو لهذا يعكف على اثبات وجود (الله) بالبراهين المنطقية الضرورية، ويقدم لنا منها خمسة براهين هي على النحو الآتي:[16]

البرهان الأول: يقوم على فكرة الحركة وقد عرضه في كتابه الخلاصة اللاهوتية، ويقول فيه بايجاز ان كل متحرك لا بد له من محرك لأن التحريك لا يمكن ان يستمر الى ما لا نهاية وأنما لا بد أن يقف عند محرك لا يتحرك، يكون هو المحرك الأول وهو (الله)، وهو برهان مقتبس من أرسطو الذي عرضه في المقالة الثامنة من (السماع الطبيعي) البرهان الثاني: هو ما يسمى برهان العلة لأنه يقوم على أساس العلية، فيقول ان كل نتيجة لها سبب وكل معلول له علة، وهناك تأثير متبادل بين الأشياء بعضها البعض، لكن لا يمكن أن تستمر سلسلة العلل والمعلولات الى ما لا نهاية، بل لابد من الوقوف عند علة أولى وهذه العلة الأولى هي (الله) .

البرهان الثالث: ويسمى برهان الممكن والواجب وخلاصته ان هناك أشياء ممكنة وكل ما هو ممكن الوجود يمكن أن يوجد، وألا يوجد أيضاً، لكن اذا كان هناك ما هو ممكن الوجود فأن ذلك يعني أنه لا يستمد وجوده من ذاته، وأنما لا بد أن يستمده من غيره، وبذلك نعود الى البرهان الثاني، وهو سلسلة العلل والمعلولات، لا يمكن أن تستمر الى ما لا نهاية ولذا وجب القول بوجود واجب الوجود بذاته هو (الله) .. [17]

البرهان الرابع: وهو برهان التدرج في الكمال، ويقوم على أساس مراتب الكمال القائمة في الوجود، فأذا كنا نحكم على بعض القضايا بالصدق وبعضها بالكذب وبعضها الآخر يجوز الصدق والكذب، فأننا بذلك نحكم بوجود درجات للحقيقة أو مراتب لما هو حق فهناك أشياء أكثر حقيقة من غيرها، ولكن ما هو اكثر حقيقة قد يكون أقل حقيقة بالنسبة لشيء ثالث أكثر حقاً منه، وهذا يعني ان المراتب كلها نسبية،

---

16. عبد الرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى، مصدر سابق، ص137.

17. جلسون، ايتين، : الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، مصدر سابق، ص121-122.

فهي تقال بالنسبة الى حق مطلق، وهذا الحق كما كان يقول أرسطو في كتابه الميتافيزيقيا يشمل الوجود المطلق، ومنى ذلك ان الحق المطلق هو الوجود المطلق، فهناك اذن موجود مطلق وهو حق مطلق هو (الله) .

البرهان الخامس: وهو برهان النظام، اذ انه في العالم نظام، وهذا النظام لا بد له من منظم عاقل، لأن العالم كله منظمن لا من حيث جزئياته بل النظام يسود العالم ككل، فكل شيء يهدف لغاية معينة ولا شيء باطل أو عبث . والأشياء ككل تميل الى تحقيق غاية واحدة، وهذا النظام الهائل يقتضي وجود منظم او علة منظمة وهذه العلة المنظمة لابد بالضرورة أن تكون عاقلة، لأن كل نظام لا بد بالضرورة أن يقوم على العقل فكل علة منظمة لابد أن تكون عاقلة والعلة المنظمة العاقلة لهذا العالم هي (الله) . [18]

ان هذه البراهين الخمسة كلها التي يقول بها القديس توما الاكويني تشترك في خصائص عامة مشتركة: فهي كلها تبدأ من الأشياء المحسوسة التي تملأ العالم وهي كلها تفترض سيادة قانون العلية أو السببية (سواء في الحركة التي تحتاج الى محرك، أو الوجود الممكن الذي يحتاج الى علة توجده وهي كلها تفترض أيضاً أن الأشياء مرتبة ترتيباً تصاعدياً لو تتبعه الانسان، فلا بد أن نصل الى القمة حيث يوجد المبدأ الأول للأشياء جميعاً، ان كل موجود ما خلا (الله)، مخلوق من (الله) ضرورة، لأن الوجود القائم بذاته لا يمكن الا ان يكون الا واحداً، فيلزم ان كل ما خلا (الله) ليس عين وجوده ولكنه موجود بالمشاركة، وينظر القديس توما الى العلم لى أنه يجب اضافته الى (الله) أو ينسب الى (الله)، كون العلم كمالاً وكون (الله) كاملاً، وثانياً: من ان السبب في كون موجود ما عارفاً، هو تجرده عن المادة حتى يقبل الصورة المعنوية للشيء المعروف، وتتفاوت المعرفة بتفاوت حال التجرد، (والله) في غاية التجرد عن المادة، فهو بالغ غاية المعرفة وثالثا: من ان (الله) العلة الفاعلة الأولى، فلا بد أن يكون لمفعولاته وجود سابق في علمه، وعلى ذلك (فالله) يعقل ذاته لأنها مجردة معقولة ويعقل ذاته بذاته لا بقوة متمايزة من الذات، لأن ليس فيه شيء بالقوة ولكنه فعل محض، فلا بد أن يكون فيه العقل والمعقول واحداً بعينه من جميع الوجوه، وأن يكون تعقله عين ماهيته وعين وجوده، أما الارادة فيجب اضافتها الى (الله) أيضاً، اذ ان الارادة تتبع العقل من حيث انها الميل الى الخير المعقول، ومحبة هذا الخير متى حصل، (فالله) يريد ذاته على أنه خير وغاية، (والله) يريد غيره، فأن من شأن الخير أن يشرك غيره في خيره، وهذا بالخصوص من شأن الخيرية الألهية، على أن (الله) يريد ذاته بالضرورة لأنها الموضوع الخاص المعادل

---

18. جلسون، ايتين : المصدر سابق، ص122.

لأرادته، ويريد بالأختيار لأن هذا الغير لا يزيد الخيرية الألهية شيئاً من الكمال، ولكنه موجه اليها على انها غايته القصوى .[19]

ويرى القديس توما الأكويني ان الجوهر الروحي في الانسان يسمى نفساً ويقال هذا الأسم على مبدأ الحياة بالأجمال في الأحياء الطبيعيةك النبات والحيوان والأنسان ولكن النفوس تختلف ماهية ووظائف، أما ان النفس بأطلاقها موجودة فيدل عليه ان الحياة لا تصدق على الجسم بما هو جسم، الا لكان كل جسم حياً أو مبدأ للحياة، فلا بد من مبدأ في الحي لا يكون جسماً بل فعلا أو صورة لجسم، وأما ان النفس الأنسانية جوهر روحي .

ان النفس الانسانية تدرك الماهيات بقوة خاصة هي العقل، لها فعل تستقل به دون الجسم، مما يدل على ان العقل روحي، وان النفس روحية، اذ ليس يفعل بذاته الا ما يقوم بذاته، وعلى خلاف ذلك النفس الحاسة والنفس النامية فأن جميع أفعالها تحدث في الجسم وبالجسم فليس لهما وجود خاصن ولكن لكل منهما وجوداً في المركب منهما ومن الجسم، ويلزم من روحانية النفس انها خالدة، فهي غير فاسدة بما يعرض لها من فساد الجسم .[20]

العقائد المسيحية :

المسيحيون يؤمنون بأن الله واحد وقد جاء في إنجيل مرقس: الرب إلهنا رب واحد.(مرقس 12/29) غير أن الله في العقيدة المسيحية، مكون من ثلاثة أقانيم متحدة في نفس الجوهر الذي يتساوى به منذ الأزل وإلى الأبد. وتسمى هذه العقيدة بعقيدة الثالوث الأقدس. ولا يمكن قبول أحد الأقانيم منفردًا بل يجب التسليم بها جميعًا،[21] ويقول القديس غريغوريوس النياسي فيما يخص الثالوث:

19 . يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، مصدر سابق، 163.-164.

20. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط، مصدر سابق، ص169.

(21) لجنة من اللاهوتيين، التفسير التطبيقي للعهد الجديد، مصدر سابق، ص 216

شكل (2) أيقونة معمودية يسوع، بريشة فرانسيسكو ألباني عام 1600: وقت العماد ظهر الثالوث مجتمعًا،

فبينما كان الابن يعتمد حلّ الروح بشكل طائر الحمام وسمع صوت الآب يقول من السماء:

هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت .متى 3/ 16-17

إن الأقانيم الثلاثة الإلهية: الأب والابن والروح القدس، لا يمكن فصلها عن بعضها البعض، كما لا يمكن فهمها عن بعضها البعض، كذلك لا يمكن استيعابها كحقائق بشرية، بل هي الطريقة التي عبّر فيها الله عن طبيعته التي لا يمكن تسميتها ولا التحدث عنها، وبتكيف مفهومنا عنها وفقًا لمحدودية عقولنا البشرية .

إن لفظة "أقنوم" المشتقة من اللغة الآرامية لا يوجد ما يقابلها في لغاتنا اليوم، وهي تشير إلى وحدة الكيان، فالنفس أقنوم والجسد أقنوم، وهما يتحدان سوية لتكوين الإنسان .

يظهر الثالوث مجتمعًا في مواضع عدة من العهد الجديد أشهرها عند عماد يسوع في متى 4/ 16-17 فبينما كان المسيح يعتمد هبوط الروح القدس بشكل طائر الحمام في حين سمع صوت الأب من السماء. بعض المفسرين وآباء الكنيسة يشيرون إلى أن الثالوث الأقدس قد ذكر أيضًا في العهد القديم بشكل أو بآخر، كاستخدام لفظ الجمع آلوهيم للإشارة إلى الله، واستخدام الله لصيغة الجمع في اللغة العبرية للدلالة على ذاته ما يفترض وجود ثالوث .[22]

الأقنوم الأول هو الأب ويمكن القول أنه الصورة التقليدية ل (الله)، ويقدم الكتاب المقدس عددًا كبيرًا من صفاته. أصل المصطلح يأتي من أن يسوع قد ناداه "الأب السماوي" وكذلك القديس بولس حين اعتبره "أب واحد لجميعنا." الأقنوم الثاني هو الابن ويطلق عليه أيضًا اسم الكلمة والحمل وهو: لم يعتبر مساواته بالله خلسة أو غنيمة يتمسك بها، بل أخلى ذاته متخذًا صورة عبد صائرًا شبيهًا بالبشر. ودعي حين اتخذ جسدًا يسوع المسيح، وهو الذي تنبأ عنه جميع أنبياء العهد القديم من قبل. ألوهة يسوع يمكن استنباطها من مواضع عديدة في الكتاب المقدس، فهو قال في إنجيل يوحنا: أنا والآب واحد.(يوحنا 10/30) ومن رآه قد رأى الذي أرسله.(يوحنا 12/44) كذلك فإن أنبياء العهد القديم أشاروا إلى "التجسد الإلهي": يولد لنا ولدًا، ونعطى ابنًا، وتكون الرئاسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبًا مشيرًا إلهًا قديرًا أبًا أبديًا رئيس

---

(22) لجنة من اللاهوتيين، التفسير التطبيقي للعهد الجديد، مصدر سابق، ص.553

السلام.[أشعياء 9/6] يسوع ليس فقط هو الابن بل هو أيضًا الماشيح (عربت لاحقًا إلى "مسيح") الذي ينتظره اليهود، فهو كاهن ونبي وملك.[23]

الأقنوم الثالث هو الروح القدس ويمكن الاستدلال على ألوهته من مواضع عديدة أبرزها أعمال الرسل 5/ 3-5 حيث يدعى روح الله و الرسالة الأولى إلى كورنثس 2/10 حيث يذكر أنه يتقصى حتى أعماق الله و إنجيل يوحنا 14/26 إلى جانب مواضع أخرى عديدة. والمسيحي إن لم يكن تحت سلطة الروح القدس فهو ليس بمسيحيًا، ويسبغ المسيحيون عليه ألقابًا عديدة استنادًا إلى العهد الجديد، ولديه وفق العقائد المسيحية مواهب يوزعها على المؤمنين به، وهو من يلهم الكنيسة ويقويها ومن يضع مقرراتها، وغالبًا ما يرمز له بألسنة من نار كما حلّ في العنصرة، أو طائر الحمام كما حلّ وقت عماد يسوع.

بعض الطوائف المسيحية ترفض عقيدة الثالوث، الآريوسية في القرن الرابع؛ ومع اندثارها لم تكن هناك أي طائفة ترفض هذه العقيدة حتى القرن التاسع عشر حين تأسست سنة 1872م كنيسة الرسليين في الولايات المتحدة الإمريكية ومن ثم انشق عنهم عام 1931م شهود يهوه التي تعتبر أقوى هذه الطوائف اليوم . تجمع هذه الطوائف على تكريم يسوع وإغداق الكثير من الصفات الحميدة عليه، بيد أنه في تعليمهم كائن روحي قريب من الله ولكنه ليس بإله، وأيضًا فإن قيامته كانت بشكل روحي أي غير جسدية، كما يرفضون الدور المنسوب له في الخلاص لدى سائر المسيحيين، وتنكر أغلب هذه الطوائف وجود القيامة من القبر أو وجود الجحيم . [24]

شكل (3) الأقنوم الثالث الروح القدس، كما هو مرسوم في كاتدرائية القديس بطرس في الفاتيكان.

---

(23) لجنة من اللاهوتيين، مصدر سابق، ص 6-17

(24) دور الروح القدس في تاريخ الكنيسة، المحبة، 7 تشرين ثاني 2010. http://www.almahaba.org/Masoh/dawr.htm

تاريخ المسيحية :

مع بداية عهد الإمبراطور كاليغولا (37 – 41م)، ظهر الدين المسيحي في فلسطين وأنتشر سريعاً بين طبقات البسطاء داخل الإمبراطورية الرومانية وخارجها، لكن سلسلة من الاضطهادات بدأت منذ عهد الإمبراطور نيرون (54 – 68م) مع استشهاد بطرس في روما سنة 64م . وأشتدت الأضطهادات خلال القرنين الثالث والرابع، الا ان التنظيم بلغ أشده في عصر ديوكليسيانوس (284– 305م). ويعد غاليريوس أول امبراطور اعترف بالمسيحية (سنة 311م)ن ومن ثم تلا ذلك مرسوم ميلانو (سنة 313م) حيث قبلت المسيحية كواحدة من الأديان المعترف بها، التي تتمتع بحقوق كاملة. وأخيراً قرار ثيودوسيوس الأول (سنة 389م) الذي جعل المسيحية دين الدولة الرسمي، وكان قسطنطين قد نقل مركز الإمبراطورية من روما إلى المشرق حيث العاصمة الجديدة (القسطنطينية) وخلال القرون(4– 7م) عندما دمرت روما والقسم الغربي من الإمبراطورية، بهجمات البرابرة وغيرهم. وجد إن الإمبراطورية قد ازدهرت في قسمها الشرقي، خصوصاً في عصر يوسطينيانوس (527– 565م) [25]

كانت المسيحية بداية القرن الثاني عبارة عن جماعات متفرقة صغيرة على هامش المجتمع ضمن الإمبراطورية الرومانية، وكانت قوة إيمان هذه الجماعات ونبذها الرسمي للثقافة الرومانية المتعارف عليها، فضلاً عن أصول المنتمين الأوائل إليها المتواضعة، مصدر إزعاج لدى مثقفي العالم الروماني كشيشرون وجالينوس، بيد أن أعظم ما كان يقلق الإمبراطورية الرومانية رفض المسيحيين عبادة الإمبراطور عنصر تماسك الإمبراطورية؛ فضلاً عن رفضهم الكثير من الطقوس الرسمية، إلى جانب إعلانهم احتكار الحقيقة وتقبل الموت على الارتداد عن الدين، ما دفع الخطيب البليغ لوقيانوس للقول بأن بسطاء العقل هؤلاء لم يكونوا مجرمين لكن يسوع المنافق قد خدعهم وكهنتهم يتلاعبون بهم؛ سوى ذلك فقد كان المسيحيون الأوائل يرفضون بنوع خاص الاحتكاك بالعلوم الدنيوية لارتباطها بشكل وثيق بالأديان الوثنية، ما دفع المؤرخ الروماني سلس حوالي العام 175 إلى لوم المسيحيين لأنهم يحرصون على جهلهم. [26]

---

(25) منصور المخلصي، روح ونار، بغداد ، 2010، ص18

(26) جورج مينوا ،الكنيسة والعلم، ترجمة موريس جلال، دار الأهالي، طبعة أولى، دمشق 2005، ص 77– 82

أخذ الوضع بالتغير منذ النصف الثاني للقرن الثاني، فقد أدرك المسيحيون أن عودة يسوع المنتظرة ستأخذ وقتًا طويلاً وبالتالي فإن مكوثهم على الأرض سيطول، فأخذوا يحاولون تقديم إيمانهم بشكل له المزيد من النظام والعقلانية مستخدمين صفات ثقافة عصرهم؛ نبع ذلك من إدراك أنه إن لم ترد الكنيسة البقاء كشيعة على هامش المجتمع يترتب عليها التكلم بلغة معاصريها المثقفين؛ وكان أول المدافعين عن المسيحية هو جوستينوس الذي لقي مصرعه خلال الاضطهادات التي قامت سنة 156م. [27]

يرى عدد من الباحثين أن المسيحية بقيت قريبة جدًا من الديانة اليهودية من حيث العادات والتقاليد حتى نهاية القرن الثاني، ولكن انطلاقًا من هذا التاريخ انضمت المسيحية إلى الحضارة الهيلينية التي ستتيح لها انطلاقة جديدة مع بداية القرن الثالث؛ أما على الصعيد الاجتماعي، يعلن إريك كاوفمان أن المسيحيون طوروا نظاماً اجتماعياً فعالاً على ضوء الإنجيل، فعلى عكس الوثنيين فإن المسيحيين كانوا يعتنون بمرضاهم خلال فترات انتشار الأوبئة إلى جانب عنايتهم بالمعاقين والعجزة، فضلاً عن التشديد على أهمية إخلاص الذكور في الزواج ووحدانية هذا الزواج، ما خلق نوعًا من العائلة المستقرة التي افتقدها المجتمع الروماني وجعل المؤمنات الجدد في ظل هذا الاستقرار يلدن ويربين عددًا أكبر من الأطفال، إضافة إلى وجود حياة اجتماعية مميزة فيما بين أعضاء الجماعة الواحدة ومساعداتهم الدائمة لبعضهم البعض[28] .

إن المشكلة الأساسية التي عانت منها كنيسة القرنين الثاني والثالث تمثلت في الاضطهادات الرومانية؛ فمنذ صدور مرسوم طرد المسيحيين من روما حوالي العام 58 وحتى العام 312م عانى المسيحيون من شتى أنواع الاضطهاد كان أقساها اضطهاد نيرون الذي شمل حريق روما، دومتيانوس الذي استمر سبعة وثلاثين عامًا واتخذت بداية هذا الاضطهاد أصل التقويم المعروف باسم التقويم القبطي أو المصري، وحسب مراجع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية فقد قتل مئات الآلاف خلال هذا الاضطهاد، تراجان، ماركوس أوريليوس، سبتيموس سيفيروس، ماكسيمين، ديكيوس، جالينوس، أوريليان، دقلديانوس وهي ما تعرف عمومًا في التاريخ المسيحي باسم الاضطهادات العشر الكبرى؛ لكن الأمور أخذت بالتحسن مع منشور غاليريوس التسامحي وخطوات الإمبراطور قسطنطين التي توجت بمرسوم ميلانو سنة 312 والذي اعترف بالمسيحية دينًا من أديان الإمبراطورية، فرغم جميع الاضطهادات، كانت قوة

---

(27) جورج مينوا، المصدر سابق، ص81 – 84

(28) كاوفمان، إريك ، عودة الإيمان، نيوزويك العربية، عدد 16 تشرين ثاني 2006، ، ، ص44

المسيحية الديموغرافية تتنامى مع العلم أنها وحتى عام 312 كانت أقلية داخل الإمبراطورية ككل، لكنها قد تحولت إلى قوة لا تستطيع جهات الإمبراطورية الرسمية طمسها أو التغاضي عنها [29].

شكل (4) نسخة أثرية للعهد الجديد باللغة الأرمينية: يعرف الإنجيل ذاته بأنه "آيات قد دونت لكم لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح وأنه ابن الله ولكي ت كون لكم حياة باسمه إذ تؤمنون".(يوحنا 20/31)

تعتبر الأناجيل الأربعة المصدر الرئيسي لتتبع حياة يسوع، هناك بضعة مؤلفات أخرى تذكره يطلق عليها عامة اسم الأناجيل المنتحلة وقد ورد ذكره أيضًا بشكل عرضي في بعض مؤلفات الخطباء الرومان كشيشرون. بحسب الأناجيل ولد يسوع في بيت لحم خلال حكم هيرودس الكبير، ولا يمكن تحديد تاريخ ميلاده بدقة، بيد أن أغلب الباحثين يحددونه بين عامي 4 إلى 8 قبل الميلاد. يتفق متى ولوقا أنه ينحدر من سبط يهوذا، السبط الرئيس من أسباط بني إسرائيل الإثني عشر. كذلك يتفقان أن هذه الولادة قد تمت بشكل إعجازي دون تدخل رجل، ويعرف هذا الحدث في الكنيسة باسم "الولادة من عذراء".[30] ورغم أنه ولد في بيت لحم إلا أنه قد قضى أغلب سني حياته في الناصرة[31].

نشأ يسوع في بيئة يهودية مغلقة تنتظر قدوم الماشيح، وقبيل البدء بنشاطه اعتمد على يد يوحنا المعمدان،(متى 3/13) حوالي عام 27 وكان عمره ثلاثين عامًا تقريبًا؛(لوقا 3/23) وقد انطلق في تبشيره من دعوة المعمدان ذاتها الداعية إلى التوبة، بيد أنه ترك مناطق نهر الأردن واتجه شمالاً حتى استقر في كفر

---

(29) جورج مينوا، الكنيسة والعلم، مصدر سابق، ص.109

(30) لجنة من اللاهوتيين،التفسير التطبيقي للعهد الجديد، دار تايدل للنشر، بريطانيا العظمى، طبعة ثانية 1996،ص.7

(31) متى 2/23

ناحوم، ثم أخذ يطوف قرى الجليل، وجنوب لبنان، ومناطق من الجولان، وشمال الأردن التي كان تعرف باسم المدن العشر، والخليل إضافة إلى أورشليم ومناطق أخرى.[32] تركزت تعاليم يسوع بشكل أساسي في أهمية ترك أمور الجسد والاهتمام بأمور الروح، وشجب بنوع خاص مظاهر الكبرياء والتفاخر البشري، وحلل بعض محرمات الشريعة اليهودية وجعل بعضها الآخر أكثر قساوة كالطلاق، وركز أيضًا على دور الإيمان في نيل الخلاص، وعلى أهمية المحبة.(متى 5/43) وتذكر الأناجيل، بشكل مفصل للروايات أو بشكل عام، عددًا كبيرًا من الأعاجيب والمعجزات التي اجترحها:

وكان يسوع ينادي ببشارة الملكوت، ويشفي كل ذي مرضٍ وعلّة في الشعب، فذاع صيته في سوريا كلها، وحمل إليه الناس مرضاهم المعانين من الأمراض والأوجاع على اختلافها والمسكونين بالشياطين والمصروعين والمشلولين فشافهم جميعًا، وتبعته جموع كبيرة من مناطق الجليل والمدن العشر وأورشليم اليهودية وما وراء الأردن[33]. شكل(3)

شكل (5): يمثل الموعظة على الجبل، بريشة كارل بلوش، القرن التاسع عشر:

تشملها الفصول الخامس حتى السابع من إنجيل متى.

وكان يكلم الشعب عادة بالأمثال والقصص الرمزية مبسطًا لهم أفكارًا معقدة، كذلك تزخر الأناجيل بالمواقف والأحداث التي واجهته في حياته، لتشكل مصدر عبرة وتعليم لأتباعه؛ وبشكل عام فإن المعجزات التي ذكرت قصصها بشكل مفصل في الإنجيل هي خمس وثلاثين معجزة، أما عدد الأمثال والقصص فأربع وثلاثون مثلاً، في حين يبلغ مجموعة الحوادث مائتان وخمس وخمسون حادثًا؛[34] ويعلن

---

(32) الأب بولس فغالي، إنجيل يوحنا، إنجيل الآيات، ، the footsteps of jesus، http.www.sacred-destinations.

(33) إنجيل متى 25-23 /، 4

(34) لجنة من اللاهوتيين ، مصدر سابق، ص 390 - 400

الإنجيل صراحة أن هذا جزء بسيط من أعمال يسوع لأنه "لو دونت جميع أعماله واحدة فواجدة لما كان العالم يتسع ما دوّن من كتب".(يوحنا 21/25)

وعيّن يسوع أيضًا اثني عشر تلميذًا ليلازموه،(مرقس 3/13) وكان هؤلاء الاثني عشر مختارين من حلقة أكبر كانت تتبعه وتشمل نساءً والرسل السبعين،(لوقا 10/1) بحسب العقيدة المسيحية، فإن يسوع وإثر نشاط حافل دام ثلاث سنوات، وخلال تواجده في أورشليم ضمن احتفالات عيد الفصح، قرر مجلس اليهود قتله خوفًا من تحوّل حركته إلى ثورة سياسية تستفز السلطات الرومانية لتدمير الحكم الذاتي الذي يتمتعون به، وتذكر الأناجيل بشيء من التفصيل أحداث محاكمة يسوع أمام مجلس اليهود ثم أمام بيلاطس البنطي ومنازعته على الصليب، حيث صلب المسيح خارج المدينة على تل الجلجثة وقد تبعه ليشهد عملية الصلب جمع كثيرا،(35) وبعد نزاع دام ثلاث ساعات مات المسيح، وقد ترافق موته حوادث غير اعتيادية في الطبيعة.(لوقا 23/45) وقد دفن على عجل لأن سبت الفصح كان قد اقترب، بحسب الأناجيل أيضًا، قامت بعض النساء من أتباعه فجر الأحد بزيارة القبر فوجدنه فارغًا،(لوقا 24/3) بيد أن ملاكًا من السماء أخبرهنّ أن يسوع قد قام من بين الأموات.(لوقا 24/6) فذهبن وأخبرن التلاميذ بذلك وما لبث أن ظهر لهم مرّات عدة واجترح عدة عجائب بعد قيامته أكد لهم خلالها قيامته.(يوحنا 20/25).

ان حياة التلاميذ الاثني عشر ومن معهم، أو حياة الكنيسة الأولى يمكن معرفة نشاطاتها عن طريق سفر أعمال الرسل، فبعد خمسين يومًا من قيامة يسوع حلّ الروح القدس على الكنيسة الأولى وفق السفر، ويمثل الحدث للمسيحيين ميلاد الكنيسة في القدس. وكان أعضائها يداومون على تلقي المواعظ الدينية والصلاة وكسر الخبز، والحضور إلى الهيكل وتقاسم جميع ما يملكون:(36)

بحسب سفر الأعمال أيضًا فإن الرسل استطاعوا اجتراح عدد من العجائب والمعجزات، وكانت تعاليمهم وعظاتهم خصوصًا عظتي بطرس الأولى والثانية، سببًا في تذمر مجلس اليهود، ما أدى إلى توقيف بطرس ويوحنا عدة مرات في السجن وكذلك بولس فيما بعد.(37) شكل (5)

---

(35) لماذا أراد اليهود قتل السيد المسيح؟، منتديات الكنيسة، 21 تشرين الثاني 2010. http://www.arabchurch.com/forums/showthread.php?

(36) أعمال الرسل 2/3- 2/42- 3/ 1-10- 2/45

(37) أعمال الرسل 3/11- 2/14- 3/11- 4/3-16/23

شكل(6) : القديس بولس يكتب رسائله، لوحة الفنان الهولندي رمبرانت.

أخذت الجماعة المسيحية بالنمو، وبنتيجة هذا النمو أخذت تراتبية السلطة في الكنيسة بالظهور، فعيّن سبعة شمامسة كمساعدين للرسل؛ لكن حدة الاضطهادات أخذت بالزيادة أيضًا ما اضطرهم للجوء إلى الجليل والسامرة، ما ساعد في توسع أعداد معتنقي المسيحية من خارج القدس، فأخذ فيلبس بنشر التعاليم المسيحية في السامرة، وحنانيا في دمشق؛ وبعيد ذلك تحوّل شاول الطرسوسي إلى المسيحية متخذًا اسم بولس ويعتقد المسيحيون أن ذلك قد تم بعد ظهور يسوع له على طريق دمشق[38].

ساهم بولس بنشر المسيحية خصوصًا لدى غير اليهود، إلى جانب الرسل السبعون خصوصًا في لبنان وقبرص وأنطاكية،حيث اكتسبوا قاعدة شعبية وأطلق عليهم لأول مرة مصطلح مسيحيين؛ لقد غدت أنطاكية قاعدة بولس الأساسية في رحلاته التبشيرية نحو اليونان وآسيا الصغرى، لكن مشكلة كبيرة وقعت بين المسيحيين من أصل يهودي والمسيحيين من أصل غير يهودي فيما يخص الالتزام بشريعة موسى عمومًا والختان بنوع خاص، فعقد إذاك المجمع الأول في أورشليم حوالي العام وحسمت نتائجه بعدم التزام غير اليهود بالختان أو الشريعة [39].

تلا مجمع أورشليم عدة أسفار لبولس نحو اليونان ومقدونيا، وأراد السفر إلى روما وهو ما تحقق له لاحقًا حوالي عام 59، لكن تاريخ وجود المسيحيين في روما يسبق ذلك إذ وجه بولس نفسه رسالة لهم سنة 57، وينقل التقليد المسيحي أن بطرس هو من أسس كنيسة روما بعد أن أسس كنيسة أنطاكية، وقضى هناك سنواته الأخيرة حتى مقتله عام 64 أو 67 خلال حريق روما الكبير واضطهاد نيرون للمسيحيين.[40]

---

(38) أعمال الرسل 5/14 – 6/6-8/1- 8/ 12-14- 9/10 – 9/4

(39) أعمال الرسل 11/19- 11/26- 13/13- 15/6- 15/ 23-30

(40) لجنة من اللاهوتيين، مصدر سابق، ص512

أما بولس غادر روما عام 62 متوجهًا إلى إسبانيا لكنه عاد إليها مجددًا حيث سجن وكتب من سجنه حوالي عام 66 أو 67 آخر رسائله وهي الرسالة الثانية إلى تيموثاوس قبل أن يقتل خلال اضطهاد نيرون للمسيحيين؛أما مرقس وهو تلميذ بطرس فقد انتقل إلى الإسكندرية وأسس كنيسة مصر قرابة العام 45؛ في حين توجه توما إلى الهند، وبشكل عام فقد كان حركة نشر المسيحية الأولى نشيطة للغاية؛ أسوة بسائر التلاميذ الاثني عشر فقد بشّر أيضا الرسل السبعين. وكان آخر من توفي من التلاميذ الاثني عشر يوحنا بن زبدي الذي استقر في تركيا قبل أن ينفى إلى بطمس حيث قضى هناك سني حياته الأخيرة، وكان الوحيد من الرسل الذي مات بشكل طبيعي أي أنه لم يقتل خلال أحد الاضطهادات قرابة العام 101. [41]

شكل (7) : خلق آدم: أشهر أيقونات ميكيل انجيلو تزين سقف كنيسة سيستين في الفاتيكان

رغم الانشقاق بين روما والقسطنطينية إلا أن زعامة العالم المسيحي استقرت بيد روما، فالإمبراطورية البيزنطية كانت تكفيها المشاكل الدائمة مع الدولة العباسية، والمسيحيون في سوريا ومصر كانوا يعانون من اضطهادات بعض الخلفاء الشديدة أمثال المتوكل على الله العباسي والحاكم بأمر الله الفاطمي، كذلك فإن الركود الفكري الذي ترافق مع تراجع الوضع الاقتصادي ونمو التعصب الديني عقب عهد المأمون جعل أي تجديد علمي في الدولة العباسية سواء للمسيحيين أم للمسلمين صعبًا، ومع ذلك فقد برز السريان والنساطرة في الترجمة، العلوم، الفلك والطب فاعتمد عليهم الخلفاء.[42]

---

(41) القدّيس بولس– استشهاد القدّيس بولس وإرثه – تعليم 4 فبراير (شباط) 2009 ص56

(42) وديع بشور, سوريا صنع دولة وولادة أمة، ، دار اليازجي، طبعة أولى، دمشق 1994، ص.154– 157

ولم تكن سلطة كنيسة القرون الوسطى دينية فقط بل دنيوية أيضًا، تمثلت بالدولة البابوية التي ثبتت أركانها في القرن الحادي عشر؛ وتمثلت أيضًا بالدور القيادي في السياسة الذي لعبه البابا كوسيط بين مختلف ملوك أوروبا،إن قوة الكنسية السياسية، فضلاً عن وضع المسيحيين المتردي في الشرق، ورغبة أمراء أوروبا توسيع أملاكهم وثراوتهم والكف عن الاقتتال الداخلي، جعل المناخ ملائمًا لنشوء الحملات الصليبية التي دعا إليها البابا أوربانوس الثاني سنة 1094 خلال مجمع كليرمونت جنوب فرنسا، وانطلقت في إثره الحملة الصليبية الأولى التي استطاعت احتلال الساحل السوري إضافة إلى لبنان وفلسطين ومناطق من تركيا والأردن ومصر. أما الحملة الصليبية الثانية كانت ردًا على سقوط الرها، والحملة الصليبية الثالثة كانت ردًا على سقوط القدس، أما الحملات التالية جميعًا فكانت ذات أثر محدود، فاحتلت الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينية، واستطاعت الحملة الصليبية السادسة استعادة القدس زمنًا قليلاً، في حين توجهت سائر الحملات إلى مصر، لكنها لم تستطع المكوث فيها طويلاً؛ ولم تكن الحقبة الصليبية حقبة صراع دائم، فقد كانت أيضًا مرحلة تمازج ثقافي وانفتاح حضاري بين الشرق والغرب. [43] شكل (7)

شكل (8) أيقونة التجلي لرافائيل: تعتبر منعطف في تاريخ الرسم في عصر النهضة

سقطت آخر أملاك الصليبين في المشرق بسقوط عكا سنة 1291 وبدأت حروب استعادة الأندلس، ولم تنته إلا بسقوط غرناطة سنة 1492، ولم تكن العلاقات مع الأندلس أيضًا علاقة حروب بشكل دائم، إذ تعرفت أوروبا ومثقفيها وهم جميعًا من الرهبان على الفلسفة اليونانية والرومانية ومؤلفات ابن رشد وابن خلدون وغيرهما عن طريق الأندلس، ما أدى إلى حركة تطور علمي نشطة قادتها الكنيسة[44]:

---

(43) وديع بشور، مصدر سابق ، ص.164-168

(44) جورج مينوا، الكنيسة والعلم، مصدر سابق ص 211

كما أن الثروات التي تدفقت على أوروبا من جراء نجاح الفتوح في إسبانيا ساهمت في تحسين الوضع الاقتصادي، كذلك الحال بعيد اكتشاف العالم الجديد سنة 1492 الذي افتتح معه عصر النهضة في أوروبا وعصر التبشير في أمريكا؛ وغالبًا ما كانت الحملات الاستكشافية تتم بمباركة الفاتيكان ما أدى إلى تدفق الذهب نحو إيطاليا، وتحولت بالتالي روما، فلورنسا وجنوا إلى عواصم النهضة الأولى،التي سرعان ما عمّت أوروبا، وأخذت بشكل خاص طابع الجامعات والمدارس والمستشفيات والنوادي الثقافية؛ وتطورت تحت قيادة الكنيسة مختلف أنواع العلوم وتبدو كاتدرائيات تلك الحقبة وعلى رأسها كاتدرائية القديس بطرس وسائر مباني الفاتيكان خير مثال على ذلك، وقد بدء ببناء الفاتيكان سنة 1513، أيضًا نشط فن الرسم والنحت واحتكر الفاتيكان أغلب الفنانين: ليوناردو دافنشي، ميكيلانجيلو، رافائيل وغيرهم.(45)

على صعيد الكنيسة العقائدي، تماشيًا مع التطور العلمي، تمت عقلنة الطقوس والعقائد المسيحية، وهكذا أصبحت نظرية أرسطو حول الجوهر والشكل أساس سر القربان الأقدس، وكان توما الإكويني، العالم اللاهوتي والفيلسوف، باب تنظيم العقائد المسيحية في ضوء الفلسفة، لذلك حتى المجمع الفاتيكاني الثاني في القرن العشرين قد استشهد به، وعقدت في الكنيسة حتى القرن الخامس عشر خمسة مجامع، انعقد أربعة منها في لاتران ودعوا المجمع اللاتراني، في حين انعقد الخامس في كونستانس واضعًا نهاية للانشقاق البابوي، وتابعت المنظمات الكبرى داخل الكنيسة في الظهور، فتأسست والدومنيكانية، واليسوعية (46)

على الرغم من هذا الازدهار فلم يكن العصر خاليًا مما يؤرق أوروبا: استطاعت الدولة العثمانية في القرن السادس عشر سائر الرهبنات الكبرى، الفرنسيسكانية فتح القسطنطينية سنة 1453 وسقطت الإمبراطورية البيزنطية، وتحول ثقل الكنيسة الأرثوذكسية إلى روسيا؛ كذلك فإن الثروات المتدفقة على الغرب أدت إلى انتشار الرشوة والفساد الأخلاقي في الكنيسة وإلى سيطرة بعض العائلات مثل آل ميديشي على الكرسي الرسولي، وغالبًا ما يشار إلى تلك الفترة بفساد ثلاثة بابوات: ألكسندر السادس وعشيقاته وفساد عائلته آل بورجيا، يوليوس الثاني وشغفه للحروب وليون الخامس وولعه في البناء، في سبيل ذلك استحدث صكوك الغفران؛ ما أدى إلى نشوء، حركة مارتن لوثر في ألمانيا الذي إنشق عن الكنيسة

---

(45) لجنة من اللاهوتيين،التفسير التطبيقي، مصدر سابق، ص 167

(46) جورج مينوا، مصدر سابق، ص.263 – 373

الكاثوليكية مؤسسًا البروتستانتية، في عام 1517 قام مارتن لوثر بوضع قائمة بالإعتراضات على ممارسات الكنيسة الكاثوليكية وقد شرحها في 95 بند، فكانت تلك نقطة انطلاق الإصلاح بروتستانتي في أوروبا فانتشرت البروتستانتية في أوروبا الشمالية ما أدى إلى ظهور عدد من المصلحين كان أبرزهم جان كالفن مؤسس الكالفينية، التي تعتمد النظام المشيخي، يان هوس وتوماس مونزر مؤسس حركة المعمدانية التي ظهرت بتأثير حركة تجديدية العماد، في عام 1534 أعلن هنري الثامن ملك إنجلترا نفسه رئيس كنيسة إنجلترا بعد خلاف مع الفاتيكان حول السماح بطلاقه،[47]

وبذلك تأسسس المذهب الانجليكاني الذي يعتمد النظام الأسقفي. وأدى انتشار البروتستانتية إلى انعقاد مجمع ترنت سنة 1545، تلاه سيطرة المحافظين على الكرسي الرسولي منذ وفاة البابا جول الثالث سنة 1555، ما أدى إلى تراجع دعم الكنيسة للعلوم، ومن ثم نشأت محاكم التفتيش في إيطاليا وكانت قد سبقتها في إسبانيا؛ شملت أهدافها الموريسكيون واليهود والبروتستانت. كما حاولت الكنيسة من خلالها فرض رقابة على الحركة العلمية، مما أدى إلى إدانة جاليليو جاليلي سنة 1633، الذي دافع عن نظرية مركزية الشمس، قائلاً أنها لا تعارض ما ورد في النصوص الدينية. وهي قضية تصفها الكنيسة اليوم بالمؤسفة، رغم أن الفكرة التي ادين جاليلي بسببها وهو مركزية الشمس كانت قد ظهرت أولاً على يد كوبرنيك واستقبلت بحفاوة في بلاط البابا بولس الثالث سنة 1543، ما يعكس تأثير الوضع السياسي على الكنيسة. [48]

كان نشوء البروتستانتية السبب الرئيس لاندلاع عدة حروب أهلية في أوروبا: ففي إنجلترا اضطهد البروتستانت الكاثوليك، ولم يكن الحال بأحسن في فرنسا حين اندلعت حرب أهلية بين الطرفين سنة 1562 تلتها مذبحة البروتستانت عام 1572؛ ومع بداية القرن السابع عشر دمرت حرب الثلاثين عاما التي اندلعت سنة 1618 أوروبا وهي تنتقل من دولة إلى دولة حاملة أبعادها الدينية؛ وقد تحارب في ألمانيا الكالفينيون واللوثريون وكلاهما من البروتستانت بحرب طاحنة. [49]

---

(47) جورج مينوا ، الكنيسة والعلم، مصدر سابق، ص 379 – 381

(48) Ben-Sasson, H.H., editor. A History of the Jewish People. Harvard University Press, 1976, p.588-590

(1) كارين آرمسترونغ : النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، ترجمة محمد الجورا، دار الكلمة، طبعة أولى، دمشق 2005، ص.20

في الوقت نفسه كانت الدولة العثمانية قد بلغت أوج قوتها بقيادة سليمان القانوني وأخذت أوروبا الشرقية بالتساقط بيد العثمانيين حتى توقف التمدد العثماني على أبواب فيينا سنة 1683؛ وبلغت حركات التبشير الكاثوليكية التي قادها يسوعيون أقاصي آسيا: فوصلت البعثات التبشيرية إلى الصين واليابان وأسست الكنيسة الكاثوليكية أولى معاقلها في الهند عام 1656، كذلك فقد أخذت هذه البعثات تتجه نحو الإمبراطورية العثمانية في سبيل ضم الطوائف المسيحية الشرقية إلى الكنيسة الكاثوليكية، الأمر الذي مهد ظهور الكنائس الكاثوليكية الشرقية، وأدت الحركة الديبلوماسية النشطة مع اسطنبول إلى نشوء نظام الامتيازات الأجنبية بدءًا من عام 1563 ثم ألحق به نظام حماية الأقليات الدينية بدءًا من عام 1649 .[50]

أخذت النزعات القومية بالظهور في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، ترافقت هذه الحركات بظهور عدد من المفكرين الملحدين خصوصًا في إنجلترا وهولندا التي تبنت إثر استقلالها عن إسبانيا، الكالفينية كمذهب رسمي وتبنت نظامًا ليبراليًا ما جعلها بنوع خاص موئلاً لمختلف الأقليات المضطهدة خصوصًا اليهود.[51]

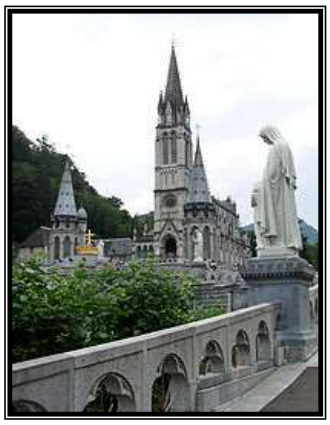

شكل (9) كاتدرائية الوردية المقدسة في لورد، فرنسا حيث يعتقد الكاثوليك أن مريم العذراء ظهرت قائلة: أنا سيدة الحبل بلا دنس

(50) قيس العزاوي : عوامل سقوط الدولة العثمانية، الدار العربية للعلوم، طبعة ثانية، بيروت 2003، ص.25

(51) كارين آرمسترونغ: النزعات الأصولية، مرجع سابق، ص 93

خلال القرن الثامن عشر نضجت الأفكار القومية والإلحادية في أوروبا، وتزامنت مع تجربتين لهما عميق التأثير في المسيحية: التجربة الأولى ممثلة بقيام الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1789: كانت الولايات المتحدة مزيجًا من طوائف بروتستانتية عديدة لا تنظمها سلطة مركزية، لذلك فقد كان اعتماد إحدى هذه الطوائف دينًا للدولة أو لإحدى الولايات سيؤدي إلى مشاكل عديدة تؤثر على حالة الاتحاد الفدرالي لذلك كان لا بدّ من فصل الدين عن الدولة، وبالتالي كان الدين السبب الرئيس في خلق أول جمهورية علمانية، لقد وجد المسيحيون الأمريكيون، خصوصاً الواسب، النظام الجديد بما يتيحه من حرية إنجاز الله تمامًا كما حصل مع موسى وداوود وفق الكتاب المقدس، فرغم علمانيتهم ظل الإمريكيون مخلصين لمسيحيتهم؛[52]

التجربة الثانية كانت الثورة الفرنسية سنة 1789 والتي قامت تحت شعار حقوق الإنسان وفصل الدين عن الدولة، لكن التجربة الفرنسية وعلى عكس التجربة الإمريكية كانت هجومية ومضادة للكنيسة: احتلّ نابليون الأول إيطاليا وعامل الفاتيكان بقسوة، وثبتت الاتفاقية الموقعة بينه وبين الكرسي الرسولي سنة 1801 ما قامت به الجمهورية الفرنسية الأولى من مصادرة أملاك الأوقاف بما فيها الكنائس والأديرة وإخضاعها لسلطة الدولة الفرنسية، كذلك فقد أصبح تعيين الأساقفة والكهنة وإدارة شؤونهم بيد السلطات الفرنسية وليس بيد الفاتيكان، بمعنى آخر قطعت جميع أواصر العلاقة بين الكنيسة في فرنسا وبين الكرسي الرسولي. أخذت الأمور بالتحسن عقب سقوط نابليون الأول وعودة الملكية، لكن المسيحية لن تسترجع ما كانت عليه حتى عام 1905؛ وقد رافق القرن التاسع عشر، انتشار الحركات والفلسفات الإلحادية العديدة، فظهر هيغل وكانط وكارل ماركس ثم داروين وجان جاك روسو ونيتشه الذي أعلن موت الله، فبدا أن المسيحية في أوروبا ستنهار، لكنها استطاعت الصمود، وشهدت بداية القرن العشرين أفولاً لهذه الفلسفات. [53]

في روسيا كانت الكنيسة الأرثوذكسية مؤسسة قوية، فقد أعاد الأباطرة الروس من أسرة رومانوف الثنائية التقليدية في قيادة الكنيسة بينهم وبين البطاركة، واستطاعت الإمبراطورية الروسية عن طريق تحالفاتها مع سائر الدول الأوروبية استعادة اليونان ومنحها الاستقلال عام 1838؛ ثم أخذت سائر الدول المسيحية في أوروبا الشرقية بنيل استقلالها عن الدولة العثمانية الواحدة تلو الأخرى بين عامي 1812

---

(52) كارين آرمسترونغ ، النزعات الأصولية، مصدر سابق، ص 34 – 35

(53) كارين آرمسترونغ، المصدر السابق، ص103– 115

و 1881؛ واستحدثت متصرفية جبل لبنان سنة 1861 بعيد المذابح بين الموارنة والدروز في الجبل والتي سرعان ما انتشرت حتى وصلت دمشق بين المسلمين والمسيحيين؛ وكان كاثوليك الدولة العثمانية قد وضعوا تحت حماية فرنسا والنمسا، في حين وضع الأرثوذكس تحت حماية روسيا وقامت إنجلترا بحماية البروتستانت. على الصعيد العقائدي، فقد أعلنت الكنيسة الكاثوليكية سنة 1856 عقيدة الحُبل بها بلا دنس تلاها تثبيت ظهور مريم العذراء في بلدة لورد الفرنسية، حسب المعتقدات الكاثوليكية؛ ثم انعقد المجمع الفاتيكاني الأول سنة 1868 خلال حبرية البابا بيوس التاسع؛ والذي شهدت حبريته أيضًا زوال الدولة البابوية وانضمامها إلى مملكة إيطاليا سنة 1870[54].

الكتاب المقدس لدى المسيحيين :

ينقسم الكتاب المقدس لدى المسيحيين إلى قسمين متمايزين هما العهد القديم والعهد الجديد. أصل هذه التسمية تعود أن اللاهوتيين المسيحيين الأوائل رؤوا ما ذهب إليه بولس في الرسالة الثانية إلى كورنثس 3/14 بأن تلك النصوص تحوي أحكام عهد جديد، ما أدى في الوقت نفسه إلى إطلاق مصطلح العهد القديم على المجموعة التي كانت تسمى الشريعة والأنبياء وتشمل الكتاب المقدس لدى اليهود. ويتكون العهد القديم من من ستة وأربعين كتاباً يطلق عليها اسم أسفار وذلك حسب الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية، أما الكنائس البروتستانتية فهي تتفق مع اليهود في قبول تسعة وثلاثين سفراً فقط، وقد قسّمت الأسفار حسب التقليد المسيحي إلى أربعة أقسام وهي التوراة، أسفار الحكمة، الأسفار التاريخية وأسفار الأنبياء؛ أما العهد الجديد فيحتوي على سبعة وعشرين سفراً وهي الأناجيل الأربعة بالإضافة إلى أعمال الرسل وأربعة عشر رسالة لبولس وسبع رسائل لرسل وتلاميذ آخرين وسفر الرؤيا.[55]

إن الجماعة المسيحية الأولى، والتي انطلقت من بيئة يهودية وامتلكت قواسم مشتركة عديدة مع الديانة اليهودية، اعتبرت في البداية الشريعة والأنبياء المقدسة لدى اليهود، كتابها المقدس الوحيد، وكانت الترجمة السبعينية لهذا الكتاب والتي أنجزها لاهوتيون يهود في الإسكندرية خلال القرن الثاني قبل الميلاد باللغة اليونانية النسخة الأكثر انتشارًا منه؛ ويعود سبب تقديس المسيحيين للعهد القديم إلى عدة أسباب:

---

(54) المحامي، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة، بيروت 2006، ص.522 - .526.

(55) لجنة من اللاهوتيين ، مدخل إلى العهد الجديد, ، دار المشرق، الطبعة السادسة عشر، بيروت 1988، بإذن الخور أسقف بولس باسيم، النائب الرسولي للاتين في لبنان، ص.17

يسوع طلب ذلك صراحة، ولأن نبؤات العهد القديم حول الماشيح قد تحققت في شخص يسوع حسب المعتقدات المسيحية، لذلك يلبث العهد القديم هامًا لتأكيد أن يسوع هو المسيح، وكذلك لفهم البيئة التي نشأ منها يسوع، ويضاف إلى ذلك أن العهد القديم جزء من وحي الله تعالى.[56]

أما تأليف أسفار العهد الجديد، وضمها في بوتقة واحدة، فهو نتيجة تطور طويل معقد، إذ يظهر العهد الجديد كمجموعة مؤلفة من سبعة وعشرين سفرًا مختلفة الحجم، وضعت جميعها باللغة اليونانية أواخر القرن الأول إن السلطة العليا في أمور الدين كانت تتمثل لدى المسيحيين الأولين في مرجعين، العهد القديم، والمرجع الثاني الذي انتشر انتشارًا سريعًا وقد أجمعوا على تسميته الرب، ويشمل هذا المرجع على التعاليم التي ألقاها يسوع والأحداث التي تبين سلطته؛ لكن العهد القديم وحده كان يتألف من نصوص مكتوبة، أما أقوال يسوع وما كان يعظ به فقد تناقلتها ألسن الحفاظ شفهيًا، وربما وجدت بعض الوثائق المكتوبة لروايتي الصلب والقيامة أو بعض الأحداث الهامة الأخرى؛ ولم يشعر المسيحيون الأولون، إلا بعد وفاة آخر الرسل بضرورة تدوين التقليد الشفهي،[57] فبدؤوا قرابة العام 120 بإنشاء العهد الجديد، مبتدئين بأسفار بولس نظرًا لما كان له من شهرة ولأنه أوصى بقراءة رسائله بنفسه، وتشير كتابات آباء كنيسة القرن الثاني إلى أنهم يعرفون عددًا كبيرًا من رسائل بولس وأنهم يولونها مكانة الكتب المقدسة، أيضًا فإن أقدم الإشارات التاريخية تعود للعام 140 تثبت أن المسيحيين يقرأون الأناجيل في اجتماعات الأحد وأنهم يعدونها مؤلفات الرسل أو أقله شخصيات تتصل بالرسل بشكل وثيق، وأنهم أخذوا يولونها منزلة الكتاب المقدس[58].

الأناجيل المنتحلة :

بعد عام 150م ظهرت الحاجة في الكنيسة إلى قاعدة شاملة تنظم المؤلفات الدينية حول يسوع، تمهيدًا لإدراجها ضمن قانون الكتاب المقدس، فكان المعيار المتبع صحة نسبتها إلى الرسل.

وبرزت الأناجيل الأربعة نظراً لصحة نسبها إلى الرسل من ناحية ولما تحلّت به صفات تتطابق مع التقليد الشفهي، ومع رسائل بولس التي اعتبرت قبلاً أسفارًا مقدسة، وحوالي عام 170 كان قانون العهد

---

(56) متى 5/ 17-20

(57) لجنة من اللاهوتيين، مدخل إلى العهد الجديد، مرجع سابق، ص 18- 19

(58) رسالة تسالونيكي الأولى 5/27

الجديد قد اكتمل وأضيف إليه سفر أعمال الرسل كمؤلف قانوني لكون مؤلفه هو لوقا مؤلف الإنجيل الثالث نفسه، ثم ضمّ إلى القانون لاحقًا رؤيا يوحنا والرسالة إلى العبرانيين إضافة إلى رسائل يوحنا الثلاث ورسالتي بطرس فضلاً عن رسالة يهوذا ورسالة يعقوب، وذلك بعد نقاشات طويلة حول صحة نسبتها، إذ لم ينته ضم جميع الأسفار حتى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع.[59]

أما تلك الكتب التي لم يثبت صحة نسبها، فقدت تدريجيًا حظوتها في الكنيسة ولدى المسيحيين كأسفار مقدسة، كرسالة اقلمنضس الأولى ورؤيا بطرس ومؤلف الراعي لهرماس، ومؤلفات أخرى غيرها، وهذه المؤلفات كانت ذات انتشار في مناطق محدودة خصوصًا مصر، لكنها دُعيت عقب رفضها في قانون الكتاب المقدس بالمنحولة والتي تعني باليونانية مخفية، وذلك لأنه لم يسمح بقراءتها خلال إقامة الشعائر الدينية وأمر أن تبقى خفية خلالها، إلا أنه قد أوصي بقراءتها في بعض الأحوال لحسن تأثيرها في الحياة المسيحية، أما أناجيل الحق وتوما وفيليبس فقد رفضت لأنها مجرد أقوال محتواه في الأناجيل القانونية ولا تحوي شيئاً من رواية الأحداث، كما أن أغلبها قد وضع بعد فترة طويلة من سائر المؤلفات، في حين رفضت أناجيل مريم ويعقوب والطفولة، لكونها أقرب إلى الرؤى والقصص الشعبية منها إلى الصيغ الواقعية، فضلاً عن التوسع في جانب معجزات الرسل بهدف تعظيم شأنهم، أما إنجيل برنابا فلا يعتبر من الأناجيل المنحولة والكتب الأبو كفيرية، إذ إنه كتب أواخر القرن الخامس عشر على يد راهب تحوّل إلى الإسلام، وبالتالي لا يعود للفترة الزمنية المبكرة ذاتها لسائر الأناجيل المنحولة، التي كتبت خلال القرن الثاني والقرن الثالث، [60]

(59) لجنة من اللاهوتيين، مدخل إلى العهد الجديد، مصدر سابق، ص 19- 21

(60) لجنة من اللاهوتيين، المصدر السابق، ص.20- 22

شكل (10) : إحدى نسخ العهد الجديد باللغة العربية ترقى للعام 1590 ومزودة بالرسوم والأيقونات.

إن مخطوطات العهد الجديد، والتي أنشئت في كثير من اللغات ليست كتابًا واحدًا بخط المؤلف نفسه بل هي نسخ أو نسخ النسخ للكتب الأصلية التي فقدت اليوم، إن أقدم النصوص المتوافرة للعهد الجديد ترقى إلى القرن الثالث وقد كتبت باللغة اليونانية على الرق، ويعتبر المجلد الفاتيكاني أقدمها ويعود لحوالي العام 250 وسبب تسميته لأنه محفوظ في مكتبة الفاتيكان، وكذلك المجلد السينائي الذي يعود لحوالي العام 300 وقد أضيف إليه جزء من سفر الراعي لهرماس، وهو من محفوظات المتحف البريطاني في لندن وسبب تسميته اكتشافه في دير سانت كاترين في شبه جزيرة سيناء؛ غير أنه يوجد عدد كبير من البرديات والمخطوطات التي تعود أقدمها إلى بداية القرن الثاني وتظهر أجزاءً مختلفة متفاوتة الطول من العهد الجديد؛ إن نسخ وطبعات العهد الجديد ليست كلها واحدة بل تحوي على طائفة من الفوارق بعضها بقواعد الصرف أو النحو وترتيب الكلمات، لكن بعضها الآخر يتعلق بمعنى الفقرات، إن أصل هذه الفروق يعود لأن نص العهد الجديد قد نسخ طول قرون عديدة وبلغات مختلفة بيد نساخ صلاحهم للعمل متفاوت، ما يؤدي حكمًا إلى أخطاء عديدة في النسخ، سوى ذلك فإن بعض النساخ حاولوا أحيانًا أن يعدلوا بعض الفقرات التي بدت لهم تحوي أخطاءً أو قلة دقة في التعبير اللاهوتي، إلى جانب استعمال نصوص فقرات عديدة من العهد الجديد في أثناء إقامة شعائر العبادة ما أدى أحيانًا إلى ادخال زخارف لفظية غايتها تجميل النص. إن هذه التبدلات قد تراكمت على مر العصور، فكانت النتيجة وصول عدد من النسخ المختلفة إلى عصر الطباعة مثقلة بمختلف أنواع التبديل والقراءات؛ لكنه وبدءًا من القرن الثامن عشر قد أخذ علم نقد النصوص بتمحيص الوثائق القديمة بدقة، خصوصًا المجلدين الفاتيكاني والسينائي، لوضع ترجمة جديدة للأصول القديمة: ولا تعتبر هذه الاختلافات، بحسب رأي المسيحيين، تزويرًا أو تحريفًا للكتاب المقدس، إذ إن النصوص القديمة والحديثة، على حد سواء، لم تختلف في القضايا الجوهرية، كالثالوث الأقدس أو ألوهية المسيح وتعاليمه، وهي الغاية الأساس من الأناجيل. ، ولا تزال هناك فروق بسيطة في مختلف الترجمات العربية للكتاب المقدس. [61]

(61) لجنة من اللاهوتيين، مدخل إلى العهد الجديد، مصدر سابق، ص.23 – 24

الأناجيل الأربعة القانونية :

شكل (11) :الحيوانات الأربعة المحيطة بعرش الله، كما ورد في رؤيا يوحنا

وهي ترمز إلى الإنجليين الأربعة، وفق المعتقدات المسيحية

يطلق على القسم الأول من العهد الجديد اسم الإنجيل ويشمل أربع كتب هي: إنجيل متى، الذي كتب في جبيل أو أنطاكية للمسيحيين من أصل يهودي هم خارج فلسطين حوالي العام 80 أو 90، وينسبه التقليد الكنسي منذ النصف الأول للقرن الثاني لمتى أحد التلاميذ الاثني عشر،[62] إنجيل مرقس وهو أقدمها تاريخيًا كتب حوالي سنة 60 أو 65 في روما خلال الفترة التي شهدت اضطهاد نيرون، وقد كتب للمسيحيين من أصول وثنية؛ ويعتبر أقصر الأناجيل، يغلب عليه سلسلة روايات قصيرة غير مترابطة فيما بينها، وقد نسب إلى مرقس أو من يدعى في سفر أعمال الرسل يوحنا مرقس ذو الأصول اليهودية،[63] وهو تلميذ ومرافق لبطرس، واعتمد عليه في كتابة إنجيله؛ أما إنجيل لوقا ثالث الأناجيل، فيوضع تاريخه بعد حصار أورشليم وتدمير هيكل سليمان عام 70 أي بحدود العام 80، وهو موجه بالتحديد إلى إحدى الشخصيات النبيلة اليونانية التي تدعى ثاوفيليوس، ومن ثم للمسيحيين ذوي الثقافة اليونانية بشكل عام، يتميز هذا الإنجيل بأنه الوحيد الذي يفتتح بمقدمة شأنه شأن كثير من المؤلفات اليونانية في تلك الأيام[64].

يطلق على الأناجيل الثلاثة الأولى اسم الأناجيل الإزائية، بسبب تشابهها في ترتيب الأحداث وفي الصياغة العامة، ويفترض علماء اللاهوت وعلماء نقد النصوص، أن كلاً من متى ولوقا قد اطلعا على إنجيل مرقس، واعتمدا عليه كمرجع أساسي في تأليفهما، وأنهما اطلعا أيضًا على وثيقة مشتركة مجهولة

---

(62) لجنة من اللاهوتيين، مصدر سابق، ص 163

(63) أعمال الرسل 12/12

(64) رسالة بطرس الأولى 5/13

حتى اليوم، يطلق عليها اسم الوثيقة ق، إذ إنه بين 1068 آية في إنجيل متى يشترك مع مرقس في 508 آيات ومع لوقا في 560 آية منها مشتركة بين لوقا ومرقس في الوقت نفسه 330 آية أي أن هذه الأخيرة مشتركة بين الثلاثة.[65]

ويضاف إلى كل إنجيل مصادره الخاصة من التقاليد الشفهية، هناك 500 آية خاصة بلوقا وحده، و330 خاصة بمتى، في حين أن 53 آية فقط خاصة بمرقس، ما يؤكد ما توصل إليه الباحثون باطلاع متى ولوقا على إنجيل مرقس الأقدم تاريخيًا؛ وعلى الرغم من هذا الائتلاف الشديد في النصوص فإن الأناجيل تحوي وجوه اختلاف في البنية العامة وهيكلية السرد إضافة لبعض التفاسير وفقًا للرؤية اللاهوتية لكل منهم والرمز المراد منه [66].

أما الإنجيل الرابع، فهو إنجيل يوحنا، يتميز ببنية خاصة، كذلك يغلب عليه الطابع اللاهوتي من ناحية الخطب والصلوات، ولا يهتم بسرد الأحداث بقدر ما يهتم باستخلاص معانيها[67]. لاحقًا وجد القديس إيرونيموس ما ذكر في رؤيا يوحنا 4/7 من أسماء حيوانات تحيط بعرش الله، بأنها رموز إلى الإنجيليين الأربعة، فأخذ متى رمز الإنسان لكونه يركز على الناحية الإنسانية ليسوع وكونه هو المسيح، في حين رُمز إلى مرقس بالأسد رمزًا للعظمة، أما لوقا بالعجل رمز القوة في العهد القديم، والنسر رمز يوحنا لقدرته على الارتقاء بالمفردات والتعابير البسيطة إلى تعابير وصيغ لاهوتية معقدة[68].

يقسم المسيحيون العام إلى سبعة أزمنة تدعى بمجموعها السنة الطقسية، يرتبط كل زمن منها بقسم من حياة يسوع الأرضية؛ وتختلف الأزمنة في مدتها، مواعيد بدايتها، أو طرق الاحتفال بها، بين مختلف الطوائف استنادًا إلى الليتورجيا السائدة والطقس المعتمد، إضافة إلى عادات البلدان المختلفة؛ بيد أنه عمومًا ومع استثناء الطوائف البروتستانتية حيث لا وجود لسنة طقسية، فإن السبعة أزمنة هي، الميلاد ذكرى ميلاد يسوع؛ الغطاس ذكرى عماده، الصوم لمدة خمسين يومًا تستذكر فيها أعاجيب المسيح وأمثاله، أسبوع الآلام تستذكر محاكمة المسيح وآلامه وصلبه ومن ثم موته، الفصح أو القيامة حيث تستذكر قيامة المسيح وما لحقها من ظهورات وتعاليم، العنصرة أي ذكرى حلول الروح القدس ويستذكر فيه

---

(65) لوقا 1/3

(66) لجنة من اللاهوتيين، مدخل إلى العهد الجديد، مصدر سابق، ص 239

(67) الفصل 17 من إنجيل يوحنا، المعروف باسم صلاة يسوع الكهنوتية.

(68) الحيوانات الأربعة في سفر الرؤيا 241 = p؟/ www.ramivitale.com// : htte

أيضًا مواعظ المسيح وتعاليمه، وأخيرًا زمن الصليب حيث تستذكر تعاليم المسيح عن يوم القيامة. ويحوي كل زمن أعياده الخاصة، وقد يحوي أعياد قديسين أو أعيادًا أخرى من خارج الزمن، وعلى العموم فإن عيد الميلاد وعيد الفصح يعتبران من أهم الأعياد المسيحية ويسبقهما صيام، ولا يوجد قواعد محددة للصوم المسيحي، فمن المعروف أنه محبذ لأن المسيح قد فعل ذلك،[69] لكنه يختلف حسب الطوائف ومن منطقة إلى أخرى، ويتنوع بين الامتناع عن الطعام ساعات محددة أو الامتناع عن ألوان محددة من الطعام؛ وإلى جانب الأعياد الشهيرة هناك العديد من الأعياد والتذكارات المسيحية التي تكتسب طابعًا محليًا مميزًا مرتبطًا ببلد معين أو طائفة محددة كعيد القديسة جان دارك في فرنسا، فرنسيس الأسيزي في إيطاليا،القديس باتريك في ايرلندا أو القديس مرقس لدى الأقباط الأرثوذكس ومار مارون لدى الموارنة؛ ولا تقتصر الأعياد المسيحية على الاحتفالات الدينية إذ ترافق عادة بممارسات ومهرجانات اجتماعية مميزة . (70)

شكل (12) الفاتيكان، كاتدرائية القديس بطرس، حيث معقل الكاثوليكية.

فيما يخصّ الأماكن ذات الأهمية الدينية لدى المسيحيين، فإنها تكاد لا تحصى، إذ إنّ عدد الكنائس والكاتدرائيات وأضرحة القديسين والشهداء، المبجلة من قبل مختلف الطوائف، تنتشر حول العالم، بعضها ذو أهمية محلية أو إقليمية، والبعض الآخر ذو شهرة عالمية، يضاف إلى ذلك مقرّات البطاركة ورؤساء الأساقفة لمختلف الطوائف، ككاتدرائية القديس بطرس في الفاتيكان، هناك بعض المواقع الرهبانية والنسكية التي ارتبط مفهوم القداسة بها كوادي قاديشا في لبنان وجبل آثوس في اليونان ودير سانت

---

(69) متى 4/2

(70) الأعياد، الإحتفالات والأيام المقدسة المسيحية الرابط

http://www.religionfacts.com/christianity/holidays.htm

كاترين في سيناء. إلى جانب ما يؤمن بعض المسيحيين بأنه مواقع لظهورات العذراء كمزاري مدينة فاطمة البرتغالية ولورد الفرنسية؛ كما تعتبر بعض هذه الكنائس مقصدًا دينيًا وسياحيًا في الوقت ذاته كتمثال المسيح الفادي في البرازيل.

يمكن أن تذكر كنيسة القيامة في القدس كأقدس الأماكن المسيحية؛ إلى جانب عدد من المواقع الأخرى التي تمثل محطات في حياة المسيح يعتقد المسيحيون أنها حدثت في تلك المواقع، ككنيسة المهد في بيت لحم وكنيسة البشارة في الناصرة مثالاً لذلك.[71]

الفن المسيحي النشوء والمعطيات الفنية :

حيثما كان الإنسان وجدت فنونه؛ ولهذا يعد الفن أحد تجليات الحضارات الموغلة في القدم، وقد تميزت بشكل خاص حضارات مصر، والشرق الأدنى، وبلاد اليونان بفنونها التي مازال بعضها موجوداً يتحدى عوادي الزمن. وهكذا فإن انتقال الإنسان من دياناته البدائية القديمة إلى ديانات سماوية جديدة لم يضعف من همته تجاه إبداع فنون خاصة به، تلبي احتياجاته الروحية والدينية والحياتية.

وبانبثاق الدين الجديد، ظهر الفن المسيحي الذي كرس لتوطيد دعائم هذا الدين وانتشاره، إذ إن انشغال الناس بما فيهم الفنانين بالديانة الجديدة التي ظهرت بمعجزة ميلاد السيد المسيح في الشرق والسرية التامة، التي أحاط معتنقي الدين الجديد أنفسهم بها خوفا من الرومان، فأدت تلك الحالة من التخفي إلى البعد عن الإبداع الفني لفترة طويلة، إلى أن أستقرت الأمور وتغير الحال بإعلان الديانة المسيحية ديناً رسمياً، وهنا بدأت كل من الدولة والكنيسة بالدعوة إلى تعليم الدين عن طريق الفن، فكان بناء الكنائس وتجميلها بالفن واسطة لذاك التعليم.[72]

ومن هنا سخرت الكنيسة الفن من أجل توطيد العلاقات الاجتماعية بين البشر وصهرهم في قالب موحد، من خلال قدسيتها وأسرارها الدينية التي عملت على إحياء ما كان مؤثراً في كل الطقوس والشعائر السابقة وتكثيفه بالصورة التي تستأثر بالإيمان[73]

---

(71) http://198.62.75/www1/ofm/ag/Introduction-Ar.html.

(72) الخولي،إينـاس علـي: الفنـون والعمـارة فـي أوربـا مـن المسـيحي المبكـر إلـى الركوكـو،ط1، وزارة الثقافـة،عمان، الأردن،2010 ، ص13

(73) دوي ، جون : الفن خبرة، ترجمة، زكريا إبراهيم، دار النهضة العربية، مصر، 1963، ص551

وغاية هذا التكثيف هو خلق الفن الذي لا يمكن ادراكه بدون الترابط الموضوعي (Objective correcitive) بين الفكرة كمضمون (conception) وبين الشكل الذي قد يكون رمزياً لوجدان المدرك، وهنا سيكون الهدف من عملية التصوير كونها جزءاً من دائرة الفن هو إحالة الفراغ مرئياً واستمراره محسوساً.[74]

لقد سجل ظهور المسيحية في جسم الإمبراطورية الرومانية (ولمدة 300 عام تقريباً) ظهور فن مغاير تماماً في الشكل والمضمون للفن الروماني ، هو الفن المسيحي المبكر (جداريات الكاتاكومب – أو فن المقابر الجنائزي) الذي انتشر في فلسطين ولبنان وسوريا ومصر وانتقل من اليونان إلى روما ، والذي استجاب في بنيته الشكلية البسيطة والبدائية إلى الحاجة الروحية للشعوب الرازحة تحت وطأة الظلم والتعسف الروماني فالشعوب تخترع آلهتها لتعبدها ، وما كان من ردة فعل ضد التماثيل الرومانية التي فقدت مصداقيتها الروحية والإنسانية والنفسية في إرضاء الشعوب أو الجمهور وما كان من الذوق العام أو الشعب إلا أن يبحث عن صورة فنية تعبر عن الجميل الذي يمنحها السكينة والأمان والتوازن بين الأرضي والسماوي الديني والدنيوي الحسي والروحي ، وان كان هو " الجميل" لا يقوم على قواعد ونسب ومعايير علمية (كما في الكلاسيكية والإغريقية) وكانت الأفكار المسيحية وتعاليمها ذات أشكال ورموز بدائية في تقنية تصويرها الأولى [75].

ففي الوقت الذي كانت فيه الروح اليونانية تنظر إلى الصلة بين الطبيعة الخارجية والداخلية على أنها صلة انسجام , وصلة وحدة لا تفرقه , أخذت الرؤية الدينية المسيحية التفرقة بين الروح والجسم , وبين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية[76]. لذلك ابتعدت الفنون بعد الأفلاطونية الجديدة عن تقليد الكلاسيكية الإغريقية , التي جعلت فيها روما من الفن الهلنستي فناً إمبراطوريا في القرون الأولى من التاريخ المسيحي [77]

---

(74) راضي حكيم : فلسفة الفن عند سوزان لانجر، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد 1986، ص20

(75) زينات بيطار: غواية الصورة،النقد والفن:تحولات القيم والأساليب والروح، ط1،الثقافي العربي للنشر والتوزيع، 1999،ص30 .

(76)عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني , مصدر سابق , ص54 .

(77) عباس الصراف : آفاق النقد التشكيلي , دار الحرية للطباعة , بغداد , 1979, ص66 .

إذاً مفهوم (الجمال المسيحي) يشكل نقيضاً لمفهوم الجمال الوثني " الكلاسيكي القديم . رغم إن المسيحية في بداية انتشارها الأول استندت إلى بعض رموز ومهرة وحرفيين محليين في فن التصوير المبكر ثم العمارة (البازيليك فيما بعد في القرنين الخامس والسادس م، ذات منبت روماني. ولكن ترافق مفهوم الفن المسيحي بوصفه فناً تبشيرياً بدين المسيح المخلص ونشر قيم الخير والمحبة والعدل والشامي، ترافق مع ظهور نصوص نقدية حول الفن وعلم الجمال(تراثوليان، ايرونيم ، كليمنت اللاسكندري، اويغان، أوغسطين) مسيحية تدين الفن الوثني القديم وتشرع انحطاط قيمه الروحية *، أي تؤكد سلبيته ليس فقط كفن تجسيدي لهذه القيم السلبية وانما ايضاً لمفهوم الجمال" [78].

وعليه ساد العصر الوسيط ذوق عام مرتبط بالنص الديني للاديان السماوية المسيحية والإسلام وفي الشرق بالذات ، وكان النص الديني ، الانجيل والقرأن الكريم قد اوجد محددات للصورة الفنية تعتمد على منظومة قيم جمالية – أخلاقية تحكمت بالذوق العام وقادته روحياً لقرون طويلة وأعادت للفن قيمته ووظيفته الشعائرية ، وفي كلا الفكرين المسيحي والإسلامي قيم جمالية تستند الى قيم ومفاهيم الروحانية ، والرمز ، والتجريد وتناسق البعدين الأرضي والسماوي ، الديني والدنيوي ، الأفقي والعامودي (في التصوير والعمارة والزخرفة ، جاءت بمجملها كرد فعل ورفض لمنظومة القيم الوثنية التي تداعت أسسها الروحية والإنسانية فاستدار عنها الذوق العام لانها لم تعد تستجيب بحاجته النفسية والاجتماعية وبالتالي فقدت عبقها الجمالي[79].

وتميز الفن المسيحي القديم بحفاظه على التعبير الفني الهيلنستي حيث استعمل الفنان المسيحي وخصوصا في بداياته وبطريقة هندسية، الاساليب والاشكال الفنية اليونانية والرومانية المعروفة، وتصوير الاشخاص والمواضيع (الراعي، المصلية، المعلم، اللباس، الحركات، الحيوانات، الورود، الزخارف) حسب طريقة التعبير ذاتها في النهج اليوناني. وبعد ما حفظ الفن المسيحي التعبير الهيلينستي الخارجي

* هناك قول مأثور لاحد اعيان الكنيسة المسيحية في القرن الرابع الميلادي مارشيلو يقول فيه " إنني احتقر هذه الأصنام الخشبية والحجرية والبكماء التي تعبدونها " ويقصد التماثيل الرومانية : تاريخ المعرفة الفنية الأوربية ، ج1 ، من العصر القديم حتى القرن الثامن عشر ، أكاديمية العلوم ، موسكو ، 1963 ، ص35 .

(78) زينات بيطار : غواية الصورة ، مصدر سابق ، ص30 .

(79) تاريخ كل العالم ، ج3 ، موسكو ، 1986 ، ص82 .

القديم، أخذ يملأ هذا الشكل بمحتوى جديد ومعنى أصيل، واستخدمت المسيحية القديم لإيمانها الجديد، فلذلك كان الفن المسيحي فناً رمزياً سرياً مثالياً، وكان يقدم شكلاً معروفاً ويقصد شيئاً آخر. [80]

وعندما فرغت الحضارة الهيلنستية من عبقريتها الأصلية وبدأت فترة الأنحطاط وأخذت المسيحية تلبس ايمانها بالتعبير الثقافي الهيلينيستي، وهكذا حفظت المسيحية تراث الحضارة القديم وانقذته من الضياع، وكان الطراز الفني الذي اتى في أعقاب العصر الهيلينيتي طرازاً دوليا مسيحيا (أستمر من القرن الرابع حتى السابع) ولقد تطور هذا الفن في البلاد الغربية والشرقية حيث طرأت عليه تغيرات بروح المسيحية الجديدة. وهذه المسيحية الجديدة جعلت الفن يركز على المعنى الروحي الرمزي على حساب التعبير الطبيعي الجسدي ففي الغرب الروماني حفظ التعبير الطبيعي المتوازن، لأن المقصود من الفن ليس إلا تقديم البشارة الانجيلية بصورة تناسب ادراك الشعب البسيط، وذلك بدون اهتمام مباشر بجمال الشكل الجسدي، كما كان الحال مع الفن الهيلينيتي وفي الشرق كان تأثير الافلاطونية الجديدة واضحة حيث أخذت المسيحية تتخلى عن التشكيل الجسدي الطبيعي وتحتقره في تعبيرها الفني. وترى الافلاطونية إن الجسد والمادة ليس له قيمة بذاته ولا يمثل الحقيقة السماوية الابدية غير المنظورة، وهذا ينطبق على الصورة الفنية التي هي رمزاً تشير الى شيء آخر يفوقها، الى سر غير منظور. [81]

الفن المسيحي المبكر :

ويمتد من عهد الاضطهاد الروماني في روما، وسرية الفن في الديناميس الممثل برموز ونقوش وزخارف، مروراً باعلان قسطنطين المسيحية ديناً رسمياً للدولة من خلال مرسوم ميلانو لحرية الأديان Edict of Milan 313م، ويشمل الفن المسيحي المبكر الرسم والنحت والعمارة، منذ بدايات المسيحية الأولى وحتى القرن السادس ميلادي.[82] والفن المسيحي في الغرب والشرق تجنب في بداياته المبكرة التصوير الواقعي للبشر وهو ما كان سمة أساسية من سمات الفن الكلاسيكي ولم يكن ذلك معبرا عن قسوة أو قصور، ولكن أن دل ذلك على شيء فهو يدل على ان هذا الفن كان أكثر روحانية وتجريدا، ورمزية.[83]

---

(80) المخلصي، منصور ، نار وروح، مصدر سابق، ص19

(81) المخلصي، منصور ، مصدر سابق ، ص19– 20

(82) Encyclopedia Britannate Reference Suite, CD – Rom, 2003 Alph– C.

)83(http:// www. legallery.com/ar/ie 9 slice/ noie 9. aspk.

ويعتمد فهم الفن المسيحي بشكل عام على فهم دلالته الرمزية التي تعتبر أحد سماته الشكلية والجوهرية.[84]إذ إن الدين المسيحي مثل أغلب الأديان يعبر عن نفسه بنصوص شكلية وتعابير حسية مادية، كأن تكون تشكيلية، موسيقية، هندسية، وحتى لغوية وكتابية.[85]

وهذه الصياغة التعبيرية فنيا للنصوص الدينية، تنبثق عن التمازج الروحي بين الحقيقة المطلقة والفنان الذي يقوم بإخراج هذه العلاقة برؤية تشكيلية رمزية مختزلة.

والواقع ان تاريخ الفن المسيحي المبكر كان يتميز بالتعقيد، فقد بدأ بإتباع المدرسة الإغريقية والرومانية، مثل الرسومات التي وجدت في مقابر روما، ومع ذلك تم تطبيقها وفقاً للثقافة السائدة في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية المقسمة، وتأثرت هذه العقائد بالعقائد والديانات التي احتكت بها تجارياً وخاصة في الإمبراطورية الشرقية، ولمدة طويلة ظل الفن المتعلق بزخرفة المخطوطات الدينية، هو الشكل الرئيسي لفن النصوص المقدسة، وذلك في بريطانيا القديمة الآنكلو سكسونية وفي إمبراطورية شارلمان، ولقد اتضح مع الزمن وبالتدريج شيئان مهمان هما؛ كانت المسيحية هي القوة التي توحد أوربا وتلقنها تعاليمها؛ وكانت الرسومات والصور هي الوسيلة الرئيسية لنقل الرسائل بفاعلية فيما بين شعوب لا تتكلم نفس اللغة، إذ لم تكن تعرف القراءة والكتابة بعد.[86]

إن الرؤية الدينية المسيحية المبكرة، أخذت على عاتقها التمييز بين الروح والجسم، وبين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية.[87]

لذلك امتنعت الفنون بعد الافلاطونية الجديدة عن تقليد الكلاسيكية الاغريقية، التي جعلت فيها روما من الفن الهيلينيستي فناً امبراطوريا في القرون الأولى من التاريخ المسيحي، ولكن الفنون المسيحية أبتعدت عن استلهام ذلك الجمال متجهة نحو قيم واقعية مبسطة فصار الرسم زخرفة على الجدران بمنمنمات إيضاحية للنصوص الدينية، كذلك على صفحات المخطوطات متجهة نحو سرد القصص

---

(84) الخولي، ايناس علي،الفنون والعمارة في أوربا،من المسيحي المبكر إلى الركوكو،وزارة الثقافة،عمان،الاردن،2010،ص16

(85) المخلصي،منصور،الكنيسة عبر التاريخ– سلسلة (قديسون وآباء الكنيسة)3، مطبعة المشرق، بغداد، 1997،ص48

(86) http: //www. legallery.com/ar/ie 9 slic / noie 9. aspx.

(87) عبد الرحمن بدوي ، ربيع الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1946، ص45

الإنجيلية بحشوات الزجاج الملون والزخرفة في انفاق مظلمة تدعى (كاتا كومب) يتعبد فيها المسيحيون الأوائل.[88]

وكانت هذه الأنفاق المظلمة (الديناميس) المتنفس الوحيد، الذي يعبر من خلاله الفنان عن متغيرات المرحلة التي كان يعيشها المتمثلة بولادة الدين الجديد، وارتباطه بالمنظومة الفكرية والاجتماعية والسياسية. آنذاك والتي عبر عنها الفنان من خلال منجزه الفني، مجسدا رؤيته في التصوف والروحانية .

فن الديناميس (Catacombs) :

تأثر المسيحيون الأوائل في بادئ الأمر بالإرشادات اليهودية التي تمنع تصوير الله غير المنظور. والخوف من التماثيل والصور المستخدمة عند الوثنين في عبادة الأصنام، فعلى مدى قرنين من الزمن لم يكن للمسيحيين تعبير فني خاص، لكن فيما بعد ظهر تعبير صوري عن طريق تزيين تجريدي عام وزخارف من نبات وورود، ثم مواضيع طبيعية، وبخاصة في مشاهد راعوية ريفية مع حيوانات وأشخاص، ومن هنا دخول الفن التشكيلي في المسيحية نحو بداية القرن الثالث.[89]

شكل (13) أنفاق الكاتاكومب

وقد اكتشف فن الديناميس في روما نحو سنة 1560م والقسم الآخر في نابولي والاسكندرية ومالطا وسوريا وتركيا وأفريقيا الشمالية. والديناميس هي مقابر تحت الأرض تتكون من ممرات وأنفاق طويلة محفورة في طبقة أرضية من نوع خاص تنتهي بغرف صغيرة مع تجاويف وفجوات لدفن الجثث توجد هذه السراديب تحت الطرق الخارجية (خارج العاصمة روما) وتغطي أكثر من 500 ميل، رسمت على هذه الجدران الآلاف من المنجزات الفنية والتي تقدم دليلاً حسياً، كيف كان الناس يؤمنون ويؤدون شعائرهم الدينية، إذ إنها تقدم انعزالاً مقدساً (Sacred Seclusion) متأتياً من الرجاء المستمر في الحياة الأبدية اللا متناهية[90]. شكل (19)

---

(88) غاتشف،غيورغي: الوعي والفن، ت: نوفل تيوف، سلسلة عالم المعرفة، الكويت،1990، ص137.

(89) المخلصي، منصور: نار و روح، مصدر سابق، ص14.

(90) كوكة، قيس عيسى: الرسوم الدينية في كنائس العراق وأديرته، مصدر سابق، ص14

إن آلية نظام هذه الديناميس كانت تعمل على هيئة أنفاق ومتاهات (labyrinth) والقبور كانت على شكل تجاويف (niches) مستطيلة المقطع تدعى بـ (Coculi) شكل (20) والذي يوضع بداخله جسد الميت بعد لفه بالأكفان، وتغلق هذه التجاويف بعد ذلك بقطعة مناسبة من المرمر (marble) او بقرميد يثبت بملاط. وعلى هذه الكتل الحجرية سيعمل الفنان في رسم ونحت تشكيلاته الفنية" [91] شكل (21).

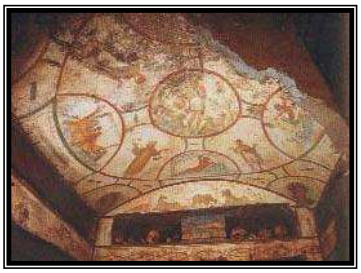

شكل (14) أنفاق الكاتاكومب شكل (15)

والديناميس تمثل مرحلة من مراحل الاضطهاد الروماني على المسيحيين فالرومان نكلوا بالكثير من المسيحيين الأوائل، فقد ورد في تاريخ الكولسيوم أنه في القرون الثلاثة الاولى للمسيحية، كان المسيحيون الاوائل بمثابة طعام للاسود الجائعة أثناء التحضير للالعاب والسباقات الرياضية وقد تكرر هذا العمل اللا إنساني في أيام حكم تراجان Trajan.[92] شكل (22)

شكل (16) الصلاة الأخيرة لمسيحين خلال أحد حفلات التعذيب في الكولسيوم، روما لوحة لجان ليون جيروم سنة 1834

.

---

(91) كوكة، قيس عيسى , مصدر سابق، ص15

(92) ايناس الخولي، مصدر سابق ,ص22 .

لذا كان المسيحيون الأوائل وتجنبا منهم للملاحقة المستمرة من قبل الرومان، يعقدون اجتماعاتهم ويمارسون طقوسهم الدينية في ظروف سريه دقيقة في أمكنة تحت الأرض، أسم الديناميس أو الكاتا كومب (comb Cata) وذلك نسبة إلى القديس (St.sebastian) الملقب بالكاتا كومب.[93]

هذه الامكنة هي سراديب الموتى(under ground burial chambers) التي كانت تقام فيها طقوس الدفن (burial) وذلك في قبر العائلة (Vaults) وخاصة في التذكارات (Anniversaries) حتى ان الأوخارستيا* كان يحتفل بها هناك[94].

وسراديب الموتى هذه التي يطلق عليها (كاتا كومب Cata comb) تكون تحت الأرض على شكل ممرات طويلة وعلى جانبيها رفوف (chambers) أو حنيات الدفن Burialc Niches، أما رفوف الدفن الكبيرة وتسمى Cubicu la فكانت لعائلات بأكملها أو لبعض الشهداء، وخصصت المقابر الكبيرة لبعض الاغنياء، حيث كانت تميزها عقود معمارية وبداخلها فراغ يكفي لأكثر من تابوت Arcosolia سواء من الحجر أو الرصاص ومحفور عليه نقوش وزخارف، وكان يتم غلق جميع المقابر(الرفوف والحنيات) بقطعة مناسبة من الرخام أو ألواح حجرية Alabs أو قرميد يثبت بملاط. وعلى هذه الكتل والالواح، ينفذ تشكيلاته الفنية من رسم ونحت.

ولقد كانت معظم رسوم الجدران بداخل هذه المقابر ذات أشكال هندسية (مربعات ودوائر) تقسم السقف والجدران، وهذا تقليد روماني قديم سواء في رسم الجدران بالفريسكو بمدينة بومباي الايطالية، أو المقابر الرومانية [95].

---

(93) رياض عوض، مقدمات في فلسفة الفن ، ط1، جروس برس، طرابلس، لبنان، 1994. ص189

* الاوخارستيايا أو الافخارشيا تدل هذه الكلمة على الشكر والبركة، وفي العلاقة مع الله يأخذ الشكر شكل صلاة، وهذا يأتي خلال تذكار عشاء المسيح الاخير مع تلاميذه، هذا التذكار يتجسد في سر القربان المقدس في القداس الإلهي، ينظر معجم اللاهوت الكتابي، ص85- 90

(94) كوكة، قيس عيسى، مصدر سابق، ص14

(95) الخولي، ايناس علي، الفنون والعمارة في أوربا، من المسيحي المبكر الى الركوكو، ط1، وزارة الثقافة، عمان، الاردن، 2010 ص20-22

شكل (17) طلاء السقف سرداب الموتى، بيترو ه مارسيلينو، روما، القرن الرابع الميلادي

وقد ميز المسيحيون قبور موتاهم برموز بسيطة، ومن الرسوم والرموز التي تكررت كثيرا نجد الآتي:

أشخاص رافعي ايديهم الى السماء ويظهر عليهم الخشوع والالحاح في طلب العون والرحمة للميت، ويمثل هذا وضع الصلاة Orantes/praying Figure ويرمز لإيمان المتوفى والأمل في رحمته، كما يدل أيضا على الإيمان بالكنيسة بشكل عام.

رجل يحمل حملاً على كتفيه، وبالطبع هذا تصور للسيد المسيح، الراعي الصالح الذي يحمل هموم أمته أو قدره على كتفيه. شكل (24)

شكل (18)

امرأة محببة وهي تصور للسيدة العذراء.

المسيح يحيط به الحواريون ويتناولون الخبز والسمك وهي ذكرى لأفطار المسيح بعد الصيام أو العشاء الأخير.

شخص يلمس بيده رأس طفل وهو رمز للتعميد Baptism ومن خلاله يعود الإنسان إلى براءة الأطفال. [96]

(96) الخولي ، إيناس علي، مصدر سابق، ص22 .

شكل (19) السمك والخبز ، سراديب الموتى في سان كاليستو شكل (20) التعميد من سراديب الموتى في سان كاليستو

وهذه الرسومات الموجودة على سقوف الديناميس وجدرانها ذات طابع خاص بسبب علاقتها بمكان الدفن، فتمثل عادة الرجاء بالحياة الخالدة على أساس الايمان بيسوع المسيح (مخلص النفوس) وهذه الرسوم استمدت مواضيعها من:

الحياة الريفية (الراعي والخراف) ورموز الزخرفة النباتية والحيوانية(الكرمة، الطاووس، الحمامة، الجمل، السمك). وأضافت المسيحية اليها بعض الرموز الجديدة (المرساة، المصلية، السفينة، الصليب) وأعطت للرموز القديمة تفاسير جديدة فشرحت الراعي الصالح الذي يخلص الخروف من الاخطار عبر وادي الموت.

شكل (21): السيد المسيح (الراعي الصالح) شكل (22): السيد المسيح (الراعي الصالح)

2. تظهر مشاهد من العهد القديم: حمامة السلام مع نوح الذي يخرج من الفلك أو خلاص الأولاد الثلاثة من آتون النار، ودانيال من انياب الأسود، واسحق من سكين ابراهيم، وشعب موسى من بحر الموت، ويونان من بطن الحوت الكبير، مع مراحل قصته، حتى يرتاح أخيراً في ظل شجرة الحياة.

3. أما المسيح فقد ظهر منذ البدء بصورة الراعي، الصبي الجميل، الذي يحمل الخروف واناء الحليب (في القرن الثاني في ديناميس بريتستاتوس)، أو بلباس الفيلسوف المعلم، الذي يقرأ الملف، وفيما بعد كالصبي وسط حلقة تلاميذ.[97]

ان مثل هذه التشكيلات الفنية، التي زينت بها سقوف وجدران الديناميس لم تؤسس وفق النمط الكلاسيكي القديم، وانما ارتكزت على رموز فكرية محملة بدلالات روحية ودينية.[98]

شكل(23) : فسيفساء الراعي الصالح.. ضريح غالا Placidia , رافينا

(97) المخلصي، منصور ، نار وروح، مصدر سابق، ص15– 16.

(98) ثروت عكاشة، الفن البيزنطي، موسوعة تاريخ الفن، العين تسمع والاذن ترى، ج11، دار سعاد الصباح الكويت، 1993، ص59